مصـــر

و

الأمـــة العربيـــة

؟

الدكتور / عصمت سيف الدولة

الطبعة الاولى

١٤٢٤ هـــ ٢٠٠٣ م

محمد سيف الدولة
seif_eldawla@hotmail.com

٢٢ شارع قصر النيل
ت : ٣٩٢١٦١٧

تقـــــديم

- هل كان من الممكن أن تنجح أمريكا وحلفائها فى احتلال العراق لو كانت مصـــر تساند العراق ؟.
- هل كان من الممكن أن يجتاح الصهاينة لبنان عام ١٩٨٢ ، وينجحون فى طـــرد المقاتلين الفلسطينيين منها لو لم تكن مصـــر قـــد وقعـــت معـــاهدة صلـــح مـــع اسرائيـــــــل فى ١٩٧٩ ؟.
- هل كان من الممكن أن تضطر منظمة التحرير الفلسطينية الى التنازل عن حقوقنا فى فلسطين ١٩٤٨ والاعتراف بمشروعية الاحتلال الاسرائيلى لها ، كما حـــدث فى اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣ ، لو كانت مصر لا تزال طرفاً فى الصراع ضـــد المشروع الصهيونى ؟.
- هل كان من الممكن أن يتغير موقف الدول العربية المعلن فى مؤتمر الخرطـــوم عام ١٩٦٧ من رفض الصلح والتفاوض والاعتراف باســـرائيل ، إلـــى القبـــول بالاعتراف بها طبقاً لمبدأ الأرض مقابل السلام ، لو كانت مصر لا تزال تقـــاتل اسرائيل ؟.
- هل كان من الممكن أن تتحقق السيادة الأمريكية فى الوطن العربى لو لـــم تكـــن مصر صديقا إستراتيجيا لأمريكا ؟.
- هل يمكن أن ينتصر أى مشروع عدوانى على الأمة العربية لـــو كـــانت مصـــر ترفضه وتقاومه أو على الأقل تشارك فى مقاومته ؟.

ومن ناحية أخرى :

- هل فى مقدرة مصر واقعيا أن تقوم بدورها القومى لمواجهة المشروع الأمريكـــى الصهيوني ؟.
- وهل هى قادرة على تحمل أعباء هذه المواجهة ؟.
- وهل صحيح أن قيامها بهذا الدور فى الخمسينات والستينات من القرن العشـــرين قد أضعفها ، وأنهكها ، وأثـــر بالسلب على تقدم ورخاء شعبها ؟.

- وهل صحيح أن الانتماء العربى لمصر أو القومية العربية هى شعارات سياسية بائدة أبعد ما تكون عن الحقيقة الموضوعية ، وانه لم يعد لها مكان فى ظل المتغيرات الإقليمية والدولية الحالية ؟.
- وهل صحيح أن على مصر أن تبدأ فى البحث عن علاقات وانتماءات إقليمية ودولية جديدة تتناسب مع مصالحها ، وأن تجد الدور المناسب لها فى كنف وبمباركة الولايات المتحدة الأمريكية ؟.
- وإذا كان ذلك كذلك ، فهل يمكن موضوعياً أن تنعزل مصر دولة وشعباً عن أمتها العربية والإسلامية ؟.

إن الإجابة على مثل هذه التساؤلات التى تبرز دائما بعد كل هزيمة عربية ، تتطلب بداية تحديد علاقة مصر بالأمة العربية من الناحية الموضوعية ، بعيدا عن الخيارات الأيدلوجية أو الصراعات السياسية. وهذا ما حاول أن يقدمه الدكتور / عصمت سيف الدولة فى دراسته التالية والتى كان قد كتبها تحت عنوان " المحددات الموضوعية لدور مصر فى الوطن العربى " وأقدمها الآن للقراء بعنوان آخر هو " مصر والأمة العربية " .

محمد سيف الدولة

يوليو ٢٠٠٣

(١)

مدخـــــــــــل

أدوار ومصـــالح :

١ ــ لكل صاحب مصلحة رأى فى دور مصر فى العالم العربي . الدور الذى أدتـــه أو الدور الذى تؤديه أو الدور الذى عليها أن تؤديه أو الدور الـــذى لا ينبغـــى عليـــها أداؤه . ويحاول كل قادر دفع مصر أو جرها الى حيث يرى تحقيقاً لمصلحتـــه. البعـض اتفاقـــا ، والبعض نفاقاً ، والبعض تثبيطاً ، والبعض توريطاً ، والبعض حبـــاً ، والبعــض حربـــاً . يجرى كل هذا فى عصر قصرت فيه المسافات بين أقطار العالم ، وامتدت فيـــه المصـــالح حتى أصبحت عالمية ، وأصبحت الحصانة دون التأثر بما يحدث فى أطـــراف الأرض أو الكف عن التأثير فيه مستحيلا أو يكاد أن يكون مستحيلا . ويجرى كل هذا فى ظل قـــوى عالمية متصارعة على اقتسام الأرض عنوة أو وفاقا . ويجرى كل هذا فى العالم العربـــى الذى تمزق دولا ، وسلب أرضا ، وتحول الى ساحة صـــراع بيـــن المصـــالح والقـوى العشائرية والطائفية والشعوبية والإقليمية والصهيونية والدولية . وهو صراع بارد حينـــا ، ملتهب حينا آخر لكنه فى كل حين مسلط على العقل العربى يحاول بالكلمـــات والنظريـــات والأفكار والآداب والفنون ، بكل إغراء وبكل إغواء، أن يصوغه فكـــرا ليســـخره فعـــلا ، ليؤدى عنه طوعا ما تقصر عن أدائه وسائل الإكراه . ومن بين ما يصوغونه أفكار متباينـــة عن دور مصر فى العالم العربى.

فى هذا الواقع المعاصر تسند الى مصر أدوار متعددة بقدر تعدد القوى ، مختلفة بقـــدر اختلاف البواعث ، متناقضة بقدر تناقض المصالح ، مترددة فيما بين أقطاب لا تلتقى : فيما بين الحلم والعلم . فيما بين الممكن والمستحيل . فيما بين الماضي والمستقبل . ولا يصـــح فى الواقع أو فى العقل إسناد كل تلك الأدوار معا الى مصر الواحدة فى زمان واحد .

كما لا يجدى ، وقد لا يكون ممكنا ، تتبع الأدوار التى قامت بها مصر فى العالم العربى مضمونا وتقييما لنستخلص منها معيارا واحدا للتقيـــيم إذ لكل زمان أحكام . وكل دور فـــى زمانه كان حصيلة مؤثرات ذاتية وموضوعية ، محلية وعربية ودوليـــة لا يجـــوز تقييـــم مضمونه خارج اطارها ، وهى بعد أكثر وأخفى من أن تحصى وتعرف. ثم انه إذا صح ان التاريخ لا يعيد نفسه وان ثمة جديدا تحت الشمس كل يوم وان كل شئ مؤثر ومتأثر متحرك متغير أبدا ، وهو عندنا صحيح ، فان قياس المستقبل على الماضي خطـــأ منـــهجي غـــير

موثوق النتائج ، ذلك لانه يلغى دور البشر صناع المستقبل . ونحن نعتقد انه من العبث أن يدور حديث حول دور أدته مصر فى العالم العربى لمجرد محاكمته إلا أن يكون المتحدثون مؤرخين ولسنا منهم . إنما المجدى أن يدور الحديث حول دور أو أدوار أدتها مصر في العالم العربى كمصدر خبرة تاريخية قد تساعد على معرفة أو توقع الدور أو الأدوار التي تؤديها مصر فى المستقبل . إذ المستقبل وحده هو المجال المفتوح لإرادة الإنسان .

كل هذا لا يعنى أن مصر قد اختارت كل الأدوار التى أسندت إليها فى الماضي أو أنها ستختار ما تشاء من أدوار تؤديها فى المستقبل ، أو حتى أنها قادرة على أداء كل الأدوار التى تختارها . ليست مصر أم الدنيا كما نحب أن نسميها تعبيرا مجازيا عن تقديرنا الكبير لها ، بل مصر جزء بسيط من هذه الدنيا المليئة بالأمصار والأدوار التى كثيرا ما ألغت دور مصر أو حدت من مجاله أو حملت مصر على أداء أدوار فأدتها مرغمة .

لهذا كله لا نعتذر للذين يتوقعون أن يكون موضوع هذا الحديث ذلك الدور الذى أسند إلى مصر فى السنوات الأخيرة وأسبابه وأبطاله وآثاره التى هزت العالم العربى هزا واشاعت فيه اضطرابا مزلزلا أدى إلي انهيار مفاهيم ونظم وقوى كانت تعتبر من الثوابت التى لا تنهار ، ومزق أواصر كان يظن انها لا تنفصم . لا . لن نتحدث عن هذا الدور أو عن أى دور غيره إلا فى نطاق محاولة اكتشاف المحددات الواقعية الموضوعية الثابتة نسبيا لدور مصر فى الوطن العالم العربى . فعلى ضوء هذه المحددات وحدها ـ إن وجدت ـ تمكن معرفة الاجابات الصحيحة على كثير من الاسئلة التى تشغل العقل العربى عن دور مصر فى العالم العربى . لماذا أدت هذا الدور أو ذاك فى الماضى ؟. وماهو الدور المتوقع ان تؤديه فى المستقبل ؟. ولماذا يتغير دور مصر فى العالم العربى تغيرا حادا من حين الى حين ؟ ماهو الدور الذى ينبغى لها أن تؤديه ؟. وما هو الدور الذى تستطيع أداءه، وما هو الدور الذى لا ينبغى لها اداؤه ولو استطاعت ؟ ثم أين ومتى وكيف ولماذا يكون دور مصر فى العالم العربى ؟ .. الى آخره .

فلنبحث عن تلك المحددات فى تاريخ مصر أولا .

(٢)

المحـــــدد الجغرافي

عن الماضي الإقليــــمي :

٢ ــ قبل أن توجد أية دولة فيما يسمى الآن العالم العربى ، بل قبل أن توجـــد الـــدول جميعا كانت مصر موقعا جغرافيا يسمى مصرابيم . وكانت فيما بين الخليج والمحيط بمثابة واحة كبيرة من الأرض الخصيبة ذات المناخ المعتدل يجرى فيها الجزء الشمالى من النيـل بدون عوائق أو مساقط موفرا لها أكبر قدر من انتظام أسباب الـــرى والزراعـــة والنقـل والمواصلات. تطل على بحرين عند ملتقى قارتين ، فكانت ، مثل كثير من أودية الأنـــهار ولكن بدرجة أفضل ، موطنا نموذجيا للحياة المستقرة على يسر النماء الزراعـــى والبنــاء الحضارى والتبادل التجارى مع ما حولها من أقاليم . فكانت بهذا كله ذات قوة جذب هائلـــة للجماعات القبلية الجائلة فيما يليها شرقا ، وغربا ، وجنوبا تغزوها أو تحاول أن تغزوهـــا لا لتنهبها ثم ترتد عنها كشأن الغزاة فى العصور القبلية بل لتستولى عليها وتستقر فيها .

حينما غزتها الجماعات القبلية الوافدة من الشرق بقيادة من أطلق عليـــهم المصريـــون اســـم " الملوك الأجانب" أو " حقا خاسوت " الذى حرف فى اللغة الإغريقية الى" هكسوس"، عام ١٦٧٥ ق.م استولوا عليها واستقروا فيها قرنا (حتى عام ١٥٦٧ ق.م) وكانت منـــهم أسرتان حاكمتان هما الأسرة الخامسة عشرة والأسرة السادسة عشرة ، وثلاث عشرة ملكـــا فرعونا أولهم ششى وآخرهم ابيبى الثالث .

حينما غزتها الجماعات القبلية الوافدة من الغرب من نسل يويو واوا الليبي عـــام١٩٥٠ ق.م استولوا عليها واستقروا فيها قرنين (حتى عام١٧٣٠ ق.م) وكـــانت منـــهم أســرتان حاكمتان هما الأسرة الثانية والعشرون والأسرة الثالثة والعشرون ، وأربـــع عشـــرة ملكـــا فرعونا أولهم شاشانق الأول وآخرهم اوسركون الرابع.

وحينما غزتها الجماعات القبلية الوافدة من الجنوب عـــام ٧٥١ ق.م اســتولوا عليـــها واستقروا فيها قرنا (حتى عام ٦٥٦ ق.م) وكانت منهم اسرة حاكمة هى الأسرة الخامســـة والعشرون ، وخمسة ملوك فراعنه: بغنجى وشاباكا وشبتاكا وطهرقا وتانون أمانى .

وحينما غزتها التجمعات القبلية الوافدة من فارس تحت قيادة قمبيز عام ٥٢٥ ق.م استولوا عليها واستقروا فيها أكثر من قرن (حتى عام ٤٠٤ ق.م) وكانت منهم أسرة حاكمة هى الأسرة السابعة والعشرين ، وخمسة ملوك فراعنة أولهم قمبيز وآخرهم دارا الثانى . وبعد أن طردتهم ثورة قادها الفرعون آمون حر لم يلبثوا حتى عادوا إليها قبل أن يمضى نصف قرن فغزوها عام ٣٤١ ق.م واستولوا عليها واستقروا فيها قرنا آخر (حتى عام ٢٣٢ ق.م) وكانت منهم أسرة حاكمة هى الأسرة الحادية والثلاثون ، وثلاثة ملوك فراعنة أولهم ارتخشاشا الثالث وآخرهم دارا الثالث .

ثم جاء البطالمة فاستقروا فيها ثلاثة قرون ، ثم الرومان فاستقروا فيها أربعة قرون ، ثم البيزنطيون فاستقروا فيها نحو ثلاثة قرون ثم العرب عام ٦٤٠ ميلادية فاستقروا فيها وتعربت جملة ولم تزل.

٣ ــ وهكذا فرضت جغرافية اقليم مصر على مصر مفهوما مصريا لأمن مصر. أمن وجودها وحدودها وأمن مبادلاتها ومواصلاتها . مؤداه : بما أن مصرــ جغرافيا ــ ذات قوة جذب للغزاة من ناحية ، وبما أنها توفر لمن يغزوها أفضل أسباب الاستقرار فيها ، من ناحية ثانية ، فان المواقع المناسبة للدفاع عن مصر تقع خارج حدودها الجغرافية فى جميع الاتجاهات شرقا وغربا وجنوبا وشمالا . أو بصيغة أخرى ان خطوط الدفاع عن مصر تقع فيما يجاورها من أقاليم بعيدا عن حدودها . فيمكن القول أن جغرافية اقليم مصر وما يحيط بها من أقاليم قد فرضت على مصر أن تقوم فيما يحيط بها بدور دفاعى عن ذاتها .

٤ ــ ويكاد تاريخ مصر الفرعونية أن يكون تأريخا لهذا الدور. وأغلب ما عنى ملوك مصر الفراعنة بتسجيله حفرا على جدران المعابد هو قصص خروجهم الى جميع الاتجاهات لمواجهة التجمعات القبلية التى تجهز نفسها لغزو مصر وضربها ضربات وقائية مبكرة قبل أن تقترب منها .

أما فى الشمال فنقرأ على جدران معبد الكرنك أنه بعد أن استطاع الفرعون أحمس الأول (١٥٧٠ــ ١٥٤٦ ق.م) طرد الهكسوس من مصر طردهم من جزيرة كريت وأراد أن يكرم جدته الملكة " أعج حوتب " للدور العظيم الذى قامت به فى تعبئة الجيوش وتحريضها على القتال فيسميها ملكة كريت . ونقرأ على جدران معبد الرمسيوم فى الأقصر ما أمر بحفره الفرعون رمسيس الثانى (١٢٩٠ــ١٢٢٣ ق.م) ثبتا للبلاد التابعة لمصر فنجد من بينها قبرص وكريت.

أما فى الغرب فمنذ بداية التاريخ المكتوب تذكر الآثار أن فرعونا من الأسـرة الثانية أسمه خع سخم أو حورس ، لا يعرف أحد تاريخ حكمه ، قد خرج من مصر لمقاتلة القبائل الليبية التى تهددها . وتحكى بردية سنوهى مأساة اغتيـال الفرعـون العظيم امنمحات (١٩٩١ـ١٩٦١ ق.م) فتقول أن اعداءه تمكنوا منه وقتلوه منتهزين فرصة غيـاب ابنه وولى عهده وقائد جيشه سنوسرت . إذ كان قد أرسله قائدا لحملة للقضاء على التجمعـات القبلية التى تجهز نفسها لغزو مصر فى قواعدها فى ليبيا . وتحكى الآثـار أن امنحوتب الأول فرعون مصر(١٥٤٦ ـ ١٥٢٦ ق.م) قد أرسل جيشا كبيرا بقيادة أحمس ابانا إلى ليبيا لتشتيت القبائل المتجمعة هناك تستعد للسير الى مصر . وعلى جدران معبـد الكرنك يسجل الفرعون سيتى الأول (١٣٠٣ ـ ١٢٩٠ ق.م) قصة مثيرة عـن خطـر مـزدوج المصدر من الشرق والغرب. فقد اجتاحت الشرق قبائل هندوـ اوربية فـهاجرت قبائلها مطروده بحرا ولجأت الى شاطئ شمال أفريقيا . فلما أن تجمعوا هناك تعرضوا لقوة جذب النماء والرخاء والإستقرار فى مصر فاتجهوا إليها فخرج إليـهم الفرعـون سـيتى الأول وطاردهم .

وتشهد بقايا الأواني الفخارية التى اكتشفت فى الخرطوم وغرب السودان وفـى قريتى البدارى فى صعيد مصر (أسيوط) أن علاقة مصر بالجنوب ترجع الى العصر النيوليتى (العصر الحجري الحديث) أي إلى ما قبل ٤٠٠٠ سنة ق.م. وعلى صخور جبـل الشـيخ سليمان على مقربة من بوهن أمام وادى حلفا نقرأ نبأ وصول جيوش مصر بقيادة الفرعـون اتى الثانى من ملوك الأسرة الأولى لتأمين طرق التجارة مع الجنوب . ويحكى لنا الرحالـة الفرعون حر خوف فى تاريخ حياته المسطور على واجهة قبره فى أسوان انه صاحب حملة قادها أبوه الى الجنوب وأنه قاد هو نفسه ثلاث حملات متتالية بأمر من الفرعون بيبى الأول (٢٤٠٢ ـ ٢٣٧٧ ق.م) وبينما ذهبت الحملات الى بلاد لم يعرفها أحد من قبل ـ كما قـال ـ خصص قصة الحملة الثالثة التى تمت فى عهد بيبى الثانى لنبأ عثوره على قـزم حـى وابلاغه فرعون النبأ . ويورد رسالة الفرعون إليه أن " تعالى إلي الشمال. تعالى سـريعا إلي القصر . واحضر معك هذا القزم الذى جئت به من أرض الأرواح حيا سـالما وفـى صحة جيدة ليرقص للإله " . ولم يكن ذاك غريبا فقد كان بيبى الثانى طفلا ولكن الفرعـون الطفل قد أصبح فرعونا شابا فأدرك أن دور مصر فى الجنوب ليس لهوا ولعبا بالأقزام بـل مسألة حياة أو موت فمنه يجرى شريان حياة مصر (النيل) ، فأرسل إلى الجنـوب قـائده بيبى لنخت ليؤدى دورا آخر ذكره القائد فى سجل تاريخ حياته المحفور فقال : " أرسـلني

جلالة مولاي لأؤدب بلاد ارثت فقمت بما جعل مولاى يثنى على وقتلت منهم عددا كبيرا ، من بينهم أبناء الزعماء ورؤساء المحاربين وأحضرت منهم أسرى الى القصر . كان عددهم عظيما لأني كنت شجاعا ومعى جيش كبير من الجنود الأشداء ".

وحيث توجد كرمه فى السودان أسس امنمحات الأول (١٩٩١-١٩٦٢ ق.م) مركزا للتجارة تحرسه قوة مرابطة فى حصن شيده فى سمنه جنوبى الشلال الثانى ثم توالت الحصون فأصبحت سبع عشرة حصنا ترابط فيها قوات تحرس النيل وتدافع عن مصر عند خطوط على بعد مئات الكيلومترات من حدودها ، ومع ذلك فليست العبرة بالسن دائما فما أن تتعرض حصون مصر وخطوط تجارتها فى الجنوب لخطر ناشئ حتى يخرج الى حيث موقع الخطر الفرعون الصغير امنحوتب الأول (١٥٤٦ - ١٥٢٦ ق.م) ويعيد الأمن إلى مصر بمعارك ناجحة فى السودان . أما الفرعون تحوتمس الأول(١٥٢٥ - ١٤٩٥ ق.م) فقد مد حدود حكمه الى السودان وعين حاكماً له فرعوناً أسماه " الابن الملكى لكوش" وأصبح محرماً على من هم جنوب تلك الحدود عبورها الى الشمال . وحينما حاول أمراء قبائل كوش تحدى تلك الحدود هزموا واستقبل تحوتمس قادة جيوشه المنتصرة وكرمهم فى اسوان . ثم تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م) الذى قاد بنفسه حملة الى السودان وبقى هناك سبعة أشهر يقاتل القبائل التى تهدد مصر وتجارتها ولم يعهد بذلك الى أحد من قواده بالرغم من أنه كان قد قارب السبعين من عمره . أما الفرعون امنحوتب الثالث (١٤٣٦ - ١٤١١ق.م) فان تمثاله فى قرية النجعة على مقربة من شندى شمال الخرطوم شاهد على أنه كان يدافع عن مصر.. و.. إلى آخرهم ..

أما عن الشرق فقد خرج الى الشرق قائداً منتصراً وعائداً الملك الفرعون ساحورع من الأسرة الخامسة (٢٥٥٣- ٢٥٣٩ ق.م) وببيى الأول من الأسرة السادسة (٢٤٠٢ - ٢٢٧٧ ق.م) الذى طاردت قواته بقيادة البطل العسكرى "ونى" التجمعات القبلية ثم دحرتها عند جبال الكرمل . وامنمحات الأول (١٩٩١ - ١٩٦١ ق.م) من الأسرة الثانية عشرة الذى أراد أن يحصن حدود مصر الشرقية نهائياً فبنى على طول الحدود سورا فرعونياً عظيماً لم يصمد طويلاً فاضطر أحد خلفائه سنوسرت الثالث (١٨٧٩-١٨٤١ ق.م) أن يطهر كل شرقى البحر الأبيض المتوسط وأن يترك هناك فصائل مقاتلة تجوب الشواطئ وتراقب الطرقات وتنذر مبكرا بأى مشروعات غزو مصر. وأحمس (١٥٧٠-١٥٤٦ق.م) يطرد الهكسوس من مصر ويتعلم من الجغرافيا فيعلم أنهم لن يكونوا قد خرجوا من مصر الا إذا خرجوا من فلسطين فيخرجهم منها .

فتعلم الجغرافيا فراعنة مصر أن هذا البعد لا يكفى فيأتي تحوتمس (١٤٩٠ـ١٤٣٦ ق.م) وما أن يصل إليه نبأ وصول قوات قادش مدينه مجدو فى سورية حتى يعتبر ذلك اعتداء على حدود أمن مصر فيخرج إليهم ويقاتلهم ويدمرهم فى مدينة نوخاخش المجاورة لمكان حلب الحالية . ويواصل حملاته دفاعا عن أمن مصر التى بلغت ستة عشرة حملة مطاردة أوصلته الى الفرات . ويفكر ذاك الفرعون العبقرى فيما سيصنعه التاريخ بعده بعشرات القرون . أن التآخى مع الجيران وليس القهر هو الذى يحفظ أمن مصر. فيجمع أبناء ملوك القبائل التى قهرها وأولياء العهود فيها ويحملهم الى مصر ويحشدهم مع أبنائه فى قصوره ويؤاخى بينهم ليتعلموا جميعا أن أمن مصر هو أمن جيرانها وأنها ل اتغزوهم الا مضطرة فان تحالفوا على التعاون لرد المخاطر عنهم جميعا فهذا يكفى مصر أمنا . وقد كان . عاد أولياء العهود اخوة وأصبحوا ملوكا وقادة وحالوا دون أن تكون مواطنهم مراكز تجمعات تهدد مصر فنعمت مصر بفترة طويلة نسبيا من الأمن والهدوء والرخاء والتقدم الحضارى الذى تجاوز أمور الدنيا الى أمور الدين فأنجبت أمنونحتب الرابع (١٣٧٠ـ ١٣٤٩ ق.م) الذى أنهى عبادة آمون وأشاد بعبادة آتون (الشمس) وحمل لقب إخناتون فكان أول الموحدين من فراعنة مصر. وفى عهده اكتمل مفهوم أمن مصر ، فهو أدراك لمواطن الخطر عليها فى مواقعه وليس عداء لمواطنى تلك المواقع . فحين تجمع على حدود مصر الشرقية جل مواطنى سورية وفلسطين يريدون دخولها وتبين القائد الفرعونى (حور محب) أن جيوش ملكة خيتا قد غزت ديارهم وطردتهم وطاردتهم حتى حدود مصر فتح لهم الحدود وآوتهم مصر وعقدت معهم ما يمكن أن يسمى " معاهدة دفاع مشترك " فكونوا جيشا مشتركا خرج الى حيث مواقع الخطر المشترك وقضى على جيوش خيتا . فلما تحررت سورية وفلسطين أمنت مصر. وكانت تجربة علمت الجميع ما يمكن أن نسميه المصير المشترك مدخرين تعبير وحدة المصير الى مرحلة تاريخية لاحقة . كذلك حين عادت جيوش ملكة خيتا إلي الاستعداد لغزو مصر وجمعت له من استوردهم قائدهم المسمى (موتللى) من جند مرتزقة من سكان بحر ايجه (اليونان) وامارات آسيا الصغرى (تركيا) ، وخرج إليهم رمسيس الثانى (١٢٩٠ـ ١٢٢٣ ق.م) كادت الدائرة تدور على جيش الفرعون المصرى وفر كثير من جنده وباتت الهزيمة وشيكة وأصبح مصير مصر ذاتها معلقا على نجدة من الحلفاء ، تقدم لنجدتها ألوف من شباب فلسطين مكونين تشكيلا عسكريا يطلق عليه فى الآثار اسم " ثيارونا " ويعنى" فرقة الشبيبة "، وناصروا رمسيس الثانى فانتصر وانقذت مصر وفلسطين وسورية معا . وحينما بدأ الخطر الآشوري يدق أبواب سورية كرر المصريون والفلسطينيون التجربة الناجحة فشكلوا جيشا مشتركا بقيادة الفرعون المصرى تفت نخت (٧٣٠ـ٧٢٠ ق.م) وخرجوا معا فى هذه المرة للدفاع عن سوريا دفاعا عن فلسطين ومصر... وحين انهزموا استولى الآشوريين على سورية وفلسطين ومصر أيضا ...

٥ ــ نستطيع ، بدون خسارة كبيرة ، أن نسقط من حديثنا عن دور مصر في العالم العربى قرون الحكم البطلمى والرومانى والبيزنطى جميعا ، فخلالها جميعا ألغى دور مصر وأصبحت مجرد أداة تؤدى الدور الذى يختاره لها من لهم السيطرة والحكم . ونصل الى الفتح العربى عام ٦٤٠ ميلادية ..

٦ ــ لم يكن غريبا أن يتم الفتح العربى لمصر بسهولة . ذلك لأن البيزنطيين لم يتعلموا من الجغرافيا ما تعلمه الفراعنة . فقد تم الفتح العربى لسورية عام ٦٣٦ ميلادية. وهو الإنذار الذى ما كان أى فرعون مصرى يسمعه حتى يعبئ قواته ويخرج من مصر الى حيث تتجمع النذر لتؤدى مصر دور الدفاع عن ذاتها فى المواقع التى حددتها الجغرافيا لم يفعل البيزنطيين هذا ، بل تحصنوا فى بابليون جنوبى القاهرة وهم يسمعون نبأ دخول عمرو بن العاص على رأس أربعة آلاف مقاتل لا غير من العريش حتى الفرما (شرق بورسعيد حاليا) حتى بلبيس لتدور أول معركة بينهم فى عين شمس ضاحية القاهرة .. فطلب عمرو بن العاص مددا. وبينما عاد البيزنطيون الى حصن بابليون اجتاح عمرو بن العاص على مرأى ومسمع منهم الدلتا واخترقها واستولى على الفيوم ثم عاد شرقا فعبر النيل ليلتقى بالمدد الذى جاء وحاصر البيزنطيين فى حصنهم واستولى عليه بعد سبعة أشهر قبل أن يتوجه الى الاسكندرية العاصمة فيعود البيزنطيون الى الخطأ ذاته. خطأ تصور إمكان الدفاع عن مصر من داخل مصر. أو رد الذين يتمكنون من دخولها فعلا . فيتحصنون فى الاسكندرية فيتركهم عمرو بن العاص محاصرين ويوجه قواته الى صعيد مصر فيفتحه . مات الإمبراطور الغبى هرقل عام ٦٤١ والإسكندرية محاصرة . وخلفه كونستانز الثانى الذى تبين أنه قد تم الفتح العربى لمصر منذ أن تم الفتح العربى لسورية وسبق السيف العذل فطلب الصلح فأبرم معه عمرو بن العاص اتفاقا منحه به فرصة عام للانسحاب من الاسكندرية . ولقد انسحب البيزنطيون فى نهاية العام (سبتمبر ٦٤٢ م) بعد أن حملوا معهم ما بقى بعد الذى أخرجوه فى سنة الهدنة . ودخلها العرب بدون قتال . مهلة العام هذه تكذب تكذيبا قاطعا ما قيل أن العرب قد حرقوا مكتبة الاسكندرية . فالذين يحرقون عادة هم المنسحبون منها وليس المتقدمين إليها .

٧ ــ على أى حال ، من بداية الفتح العربى وعلى مدى ثلاثين عاما فقط ، تؤدى مصر دور نقطة الانطلاق الى شمال إفريقيا . أى حتى بنى عقبة بن نافع مدينة القيروان لتصبح هى مركز التجمع وقاعدة الانطلاق الى ما يليها غربا .

(٣)

المحـــدد التاريخي

التكوين القومي :

٨ ــ هنا يبدأ دور مصر فى التطور فيتغير نوعيا ابتداء من الفتح العربى . فبعد ستين سنة فقط تصبح اللغة العربية هى لغة مصر . ابتداء من عام ٧٠٦ على وجـــه التحديـــد . ويدخل الناس فى دين الله أفواجا . ويعفى التاريخ مما فرضته الجغرافيا فلن تدافع عن ذاتها بعد ذلك . لقد أصبحت جزءا فى موقع القلب من الإمبراطورية العربية الإسلامية. تحيط بها أقطار بعدها أقطار تباعد بينها وبين مسارح المعارك الضارية التى لم تنقطع على حـــدود الإمبراطورية شرقا وشمالا وغربا .. وطالما كانت القيادة المركزية فى دمشق أو فى بغداد قادرة على الدفاع عن حدود الإمبراطورية التى انتقلت اليها حدود مصـــر. كـــانت مصـــر تؤدى دور الشريك فى الدفاع عن الدولة المشتركة. وقد بدأت فى أداء هذا الدور منذ وقت مبكر فى أول معركة حربية خاضها أسطول عربى ضد البيزنطيين فى عهد الخليفة عثمـــان بن عفان عام ٦٥٥ ميلادية بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح المعروفة بمعركــــة ذات الصوارى البحرية . الا أنها قامت أساسا وعلى مدى قرون بدور المستقر الآمن الذى يجذب إليه بناة الحضارة من الفقهاء والعلماء والصناع ، ودور القاعدة الآمنة التـــى تعبـــأ فيـــها الجيوش وتبنى فيها الأساطيل وتخزن فيها الإمدادات ، المؤهلة بهذا كله لتصبـــح عاصمـــة آمنة للدولة العربية الإسلامية . وهو ما فطن إليه الفاطميون حين انطلقوا من أقصى الغرب يريدون الخلافة فما أن بلغوا مصر حتى شيدوا القاهرة واتخذوها عاصمة . وما اضطر إليه الخلفاء العباسيون بعد سقوط بغداد عام ١٢٥٨ فاتخذوا من مصر مقرا للرمز الباقى لوحـــدة الدولة .

أما حين تضعف السلطة المركزية فقد كانت مصر تعود الى دورهـــا الدفـــاعي ولكـــن بصيغة صنعتها الجغرافيا والتاريخ معا . فهى لم تقم بالدفاع عن ذاتها ، منفردة أبدا ، بـــل موحدة القوة مع أكثر من قطر عربى آخر ومع سورية على الدوام . وقد بدأ هـــذا الـــدور حينما غلب الترك الخلافة العباسية على أمرها . فلما أن بلغ هوان الخلفاء العباسيين أنه فيما بين عام ٨٤٧ و عام ٨٧٠ عين قادة الجيوش خمسة خلفاء قتلوا منهم أربعـــة : المتوكـــل والمستعين والمعتز والمهتدى ومات خامسهم (المنتصر) بعد ستة أشهر من ولايته يقـــال

مسموماً ، استشعر أحمد بن طولون حاكم مصر الخطر فتجاهل الخليفة المعتمد ووحد مصر وسورية عام ٨٧٧ ، وحين تسقط الأسرة الطولونية ستعود مصر وسورية الى سلطة الخلافة ولكن موحدتين عام ٩٠٥ ، وفيما عدا سنوات معدودات من الانفصال نتيجة انتقال الولاية من حاكم الى حاكم ستبقى مصر وسورية موحدتين نحو ستة قرون ونصف قرن أي من عام ٨٧٧ حتى الغزو العثمانى عام ١٥١٧ . وستنضم الحجاز واليمن الى هذه الوحدة تحت قيادة محمد بن طنج الإخشيد من عام ٩٢٥ حتى عام ٩٦٩ . ثم سينضم المغرب العربى الى مصر والشام والحجاز واليمن حين تصبح القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ابتداء من عام ٩٦٩ حتى عام ١١٧١ أى لمدة قرنين ، ويسقط حكم الأسرة الفاطمية وتعود الأسرة العباسية إلي ولاية الخلافة على كل تلك الأقطار موحدة ابتداء من حكم صلاح الدين. وفى حكم صلاح الدين ومن بعده ما يستحق الانتباه .

أننا نحن العرب نحب أن نتذكر فنذكر صلاح الدين البطل العربى الذى لا يهزم . أولى بنا أن نعرف لماذا انتصر ولماذا انهزم وما هو دور مصر فى الحالتين . ونحن نعرف أن سورية قد انفصلت عن مصر على أثر وفاة السلطان نور الدين محمود . ولقد حاول صلاح الدين حاكم مصر ، بمصر وحدها ، أن يتحدى الصليبيين مرتين. فانهزم فى المرتين الأولى عام١١٧١ والثانية عام ١١٧٣ . هزمه أقل ملوك الصليبيين شأنا حاكم إمارة مونتريال الصليبية . وقد أدرك صلاح الدين أسباب الهزيمة فأدرك أسباب النصر فظل يجهز للنصر أسبابه أربعة عشر سنة . انطلق أولاً الى دمشق وهناك هزم الملك الصالح بالقرب من حماة يوم ١٣ أبريل ١١٧٥ وصفى قلاع الحشاشين الطائفية المتناثرة فى سورية وأعادها الى الوحدة . بعد هذا ، وليس قبله ، استطاع أن يتحدى الصليبيين فى معركة حطين بجيش عربى شاركت فيه مصر وقاده حاكمها صلاح الدين وليس بجيش مصرى ولو كان بقيادة صلاح الدين ، فحرر القدس يوم ٢ أكتوبر ١١٨٧ . ومن بعد صلاح الدين سيقود قطز حاكم مصر جيشا عربيا يهزم المغول فى معركة عين جالوت فى سبتمبر ١٢٦١ . وتصبح القاهرة ابتداء من العام التالى ولمدة ثلاثة قرون مقر الخلافة وعاصمة الدولة بعد أن سقطت بغداد عام ١٢٥٨ . وتؤدى مصر بكفاءة دور القاعدة والقائدة فى تحرير الوطن العربى من بقايا الإمارات الصليبية . فيحرر الجيش العربى بقيادة الظاهر بيبرس الكرك وقيسارية وأرسوف وصفد ويافا وأنطاكيا . ويحرر الجيش العربى بقيادة قلاوون اللاذقية وطرابلس . ويحرر الجيش العربى بقيادة خليل بن قلاوون عكا وصور وحيفا وبيروت فينتهى الاغتصاب الصليبى عام ١٢٩١ .

٩ ــ كل هذا يستحق الانتباه لانه مؤشر على ما كان التاريخ يصنعه بمصر منذ الفتح العربى. لقد دخلت مصر بالفتح العربى طوراً جديداً من تاريخها الطويل فخلقت من جديد. بدأ هذا الخلق التاريخى العظيم جنينا فى مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام . وفى مجتمع المدينة نبتت بذرة الأمة العربية . تحولت القبائل الى شعب . وتحول الأعراب إلي عرب . واختصوا دون غيرهم بمدينتهم فأصبحت لهم وطنا . وأنشأوا فيها دولتهم . أول حاكم لها محمد بن عبد الله . وأول دستور" الصحيفة" التى أقامت نظاماً عاما للعلاقات الداخلية والخارجية ملزما لكل المواطنين فيها مسلمين وغير مسلمين على أساس وحدة الدفاع عن الوطن الواحد.

ثم انطلق العرب بالإسلام إلي ما يجاورهم فالتقوا واختلطوا بمجتمعات كانت قد تجاوزت الطور القبلى . واستقرت شعوباً متجاورة ولكن السيطرة الفارسية والرومانية عليها جميعا قرونا عدة كانت قد أوقفت نموها فلم تتحول الى أمم متجاورة . الحميريون فى جنوب الجزيرة العربية تحت السيطرة الحبشية ثم الفارسية منذ عام ٥٧٥ ميلادية حتى ظهور الإسلام . الغساسنة فى الجزء الشمالى الغربى ومايحيط بتدمر فى سورية تحت السيطرة البيزنطية منذ القرن الثالث الميلادى حتى ظهور الإسلام . القبائل العربية من بنى لخم فى الجزء الشمالى الشرقى من الجزيرة فيما كان يعرف باسم " العراق العربى" تحت السيطرة الفارسية . كل الشعوب فيما بقى من سورية وفلسطين ثم مصر غربا حتى شاطئ المحيط الأطلسي مستقرة متجاورة على الأرض عبيداً فيها بمعنى الكلمة للرومان منذ قرون عديدة...

فجاء الفتح العربي الاسلامى ليحررهم جميعاً ويرفع عنهم قيود العبودية أولاً. ثم يلغى الحدود فيما بينهم ثانياً . ثم يقدم لهم لغة مشتركة ثالثاً . ثم يعرض عليهم عقيدة أرقى من عقائدهم رابعاً . ثم ينظم حياتهم جميعا طبقا لقواعد عامة واحدة (الشريعة الاسلامية) خامساً . ثم يتركهم قروناً فى حماية دولته ضد أى تهديد خارجى فيتفاعلون تفاعلاً حراً فيما بينهم ، ومع الارض المشتركة قرونا متصلة بدون حدود أو سدود أو قيود على حرية الانتقال والمتاجرة والعمل والتعليم والتعلم سادسا . ثم يشركهم معا فى الدفاع عن حدود الدولة المشتركة ، وفى الجهاد من أجل العقيدة المشتركة حتى اذا ما ا شتركت أربعة أجيال متعاقبة منهم فى الدفاع ضد الغزو الصليبى الذى استمر قرناً بعد خمسة قرون من الحياة المشتركة . كان الشعب قد أصبح واحداً واصبح الوطن واحداً ، وارتفع بناء

الحضارة الواحدة ، وتاهت الأنساب ، واندثرت المواطن الأولى وانتشر البشر على اتساع الوطن الواحد فاصبحوا جميعا أمة عربية واحدة . ولم تعد مصر جارة للعالم العربي ، ولا حليفا فى الدفاع ضد الخطر المشترك ، ولا شريكا فى مصلحة عابرة بل أصبحت جزءا من الأمة العربية التى صنعها التاريخ ولم يصنعها أحد على عينه.

١٠ ـ الأمة العربية وجود موضوعى غير متوقف وجودا أو عدما على إرادة أحد ، فمصر جزء من الأمة العربية بدون توقف على إرادة أحد من مصر أو من غير مصر . كما أن العربى عربى ولو كره ذلك . هكذا تعلمنا من اساتذتنا الرواد . ثم أضفنا أن مجرد هذا الوجود القومى دليل موضوعى غير قابل للنقض على أن ثمة روابط وأسبابا موضوعية، قد نعرفها وقد لا نعرفها ، توحد مصير الامة بحيث يكون من العبث الفاشل أن يحاول أى عربى أو جماعة عربية أو قطر عربى أن يفلت بمصيره الخاص من مصير امته سيفشل حتما ولو فى المدى الطويل . روابط وأسباب موضوعية قد نعرفها اذا درسنا تاريخنا وواقعنا لنكشفها لا لنختلقها . فاذا لم ندرس فاننا نكتشفها ـ بسهولة ـ فى خلاصتها الحضارية . فى ذلك الشعور بالانتماء القومى الى الامة العربية الذى ما يزال يحدد مواقف عشرات الملايين من العرب البسطاء الذين لم تتح لهم فرص التعليم والدراسة . ثم أننا نكتشفها كل يوم من مواقف غيرنا منا . فنحن عندهم عرب بصرف النظر عن اقطارنا سواء كانوا أعداء لنا أم حلفاء وأصدقاء ، وسواء أعجب هذا الانتماء أحدا منا أم لم يعجبه .

لقد كنا نقول هذا ونردده ونبشر به وندافع عنه على مدى نحو ربع قرن فى كتب منشورة ابتداء من عام ٩٦٥ . وما كان يجرؤ على انكاره الا القليل يوم أن كانت مصر تؤدى دورها المنتصر كقاعدة وقائدة ورائدة تحت راية عبد الناصر. ومن فوق قمة النصر فى فبراير ١٩٥٨ لم ينسب عبد الناصر النصر الى مصر بل نسبه الى الامة العربية . سئل عما يتوقع أن يحدث للعرب لو أنه مات فقال لسائله: " هل تظن أننى أنا الذى خلقت القومية العربية ؟. أبدا . إن الأمة العربية هى التى خلقتنى . لست أنا الذى اثيرها بل هى التى تحملنى . انها قوة هائلة ولست أنا الا أداتها . ولو لم أكن موجودا لوجدت واحدا ، عشرة ، ألفا غيرى يحلون محلى . ان القومية العربية لايمثلها رجل واحد أو مجموعة من الرجال ، انها لا تتوقف على جمال عبد الناصر ولا على الذين يعملون معه. إنها قوة كامنة فى ملايين العرب الذين يحمل كل منهم شعلة القومية. انها تيار جار، ولا تستطيع أية قوة فى العالم ولن تستطيع تحطيمها طالما احتفظت بالثقة فى ذاتها ".

نعم . طالما احتفظت بالثقة فى ذاتها . هكذا قال جمال عبد الناصر رحمه الله . ولكن كثيرين كانوا لا يثقون فى القومية العربية بالرغم مما كان يقوله أكثر حكام العرب فى التاريخ تجربة وأغناهم خبرة بدور مصر فى العالم العربى . بل كانوا يرجعون الانتماء تحت الراية المنتصرة الى جاذبية النصر ذاته بدون أن يتوقفوا للرد على السؤال : ولماذا لا يلتقى العرب تحت راية منتصرة الا أن تكون راية عربية ، ومن حولهم أمم كثيرة انتصرت فلم يلتقوا تحت رايتها ؟. على أى حال لقد قدم التاريخ الدليل الحاسم على وحدة المصير من الردة فالقطيعة فالعزلة فالعداء بين مصر السادات والعالم العربى فما الذى جرى ؟. لا أحد ينكر الآن ما جرى لا فى مصر ولا فى باقى العالم العربى .

حينما تكف مصر عن أداء دور الجزء من الأمة العربية تتقلص الى حد الشلل مقدرة بقية الأجزاء عن أداء أدوارها فتتقلص الى حد الشلل مقدرة مصر ذاتها على أن تؤدى الدور الذى اختارته ، فتكاد تنهار كل القوى فى العالم العربى بما فيها مصر . المسألة ــ اذن ــ ليست مسألة قيادة فذة وقيادة شاذه ، ولا مسألة انتصار أو انكسار ، بل هناك تحت جلد العالم العربى شبكة من الروابط الموضوعية التاريخية التى تقاوم تجزئة الأمة الواحدة ، وتحافظ على وحدتها ، وتوحد مصيرها ، وتعلم من لا يريد أن يتعلم أن غاية شرود الجزء من الكل الفشل والشلل للاجزاء جميعاً.

١١ ــ فى قلب هذا الوجود القومى يعيش ثلث الشعب العربى فى مصر ، وتختزن فيها أنضج عناصر الحضارة العربية الاسلامية فى العلوم والآداب والفنون والخبرة المتراكمة اقتصادياً وسياسياً . وتتمتع بأكبر قدر من التجانس الاجتماعى بفضل احتضان الامة العربية لها وحمايتها من آثار التخريب العشائرى والطائفى الذى أحدثته الاعتداءات الشعوبية على أطراف الامة العربية . فهى القاعدة لأية تعبئة قومية . وهى القائدة لأية مسيرة قومية . وهى الرائدة لأية نهضة قومية . وهى كما وصفها بحق الأديب المؤرخ الفرنسى بنوا ميشان فى كتابه " الازدهار العربى " بأنها "مخ العرب" ، الذى يتلقى من كل أعضاء الجسم ما تحسه وتعانيه فيدرك . ويوجه أعضاء الجسم فتستجيب . أعجبنى هذا التشبيه لأن المخ بدون أعضاء فى جسم واحد قطعة من اللحم الرخو سريع التلف . كما أن الأعضاء فى جسم واحد تختل حركتها وتطيش وقد تهلك إذا ما فقد المخ ملكة الإدراك السليم أو" غسله " أحد من تراثه وحشاه فكراً غريباً عن تكوين الأطراف .

١٢ ـ هكذا سيكون دور مصر فى العالم العربى منذ صلاح الدين حتى أواخر القرن التاسع عشر . لن تتأثر كثيرا بتنازع الأسر على تولى الخلافة . فقد بقيت تؤدى دورها كجزء من الأمة العربية وولاية الخلافة للأسرة الفاطمية ثم العباسية ثم العثمانية . انتهت ولاية الخلفاء الفاطميين فى مصر ظهر يوم جمعة . سمع المصلون خطباء المساجد يدعون للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى بأمر من صلاح الدين فانتهى الأمر . وحين تولت الأسرة العثمانية الخلافة بعد هزيمة الجيش العربى فى معركة مرج دابق يوم ١٢ أغسطس ١٥١٦ ودخول مصر فى يناير ١٥١٧ وعزل الخليفة العباسى . لم يتغير شئ فى مصر . اكتفى العثمانيون بأن يحصلوا على ربع حصيلة الضرائب ، وبأن يولوا الولاة لجبايتها . وبعد أربعة قرون لم يتركوا بها أثرا سوى مسجدين مفرطين فى تواضع العمارة أحدهما مسجد السنانية فى بولاق الذى بناه سنان باشا عام ١٥٧١ والآخر مسجد أبو الدهب الذى أنشئ عام ١٧٧٤ . ثم أنهم فصلوا إدارة سورية عن إدارة مصر لأول مرة بعد ستة قرون ونصف قرن . ولكنهم لم يستطيعوا أن يعزلوا مصر عن الأمة العربية . ولم يقبل الشعب العربى فى مصر حتى الفواصل الإدارية . فما أن يتولى الأمر فيها حاكم قادر حتى يلغى تلك الفواصل وينزع نزوعا يكاد يكون غريزيا إلى الوحدة العربية وما هى إلا استجابة لروابط موضوعية تشد الأمة الواحدة بعضها الى بعض . هكذا حاول أن يفعل على بك الكبير عام ١٧٦٨ . وهكذا حاول أن يفعل محمد على ابتداء من ١٨١٥ . وهكذا ستكون مصر مأوى الأحرار الهاربين إليها من القهر الطورانى حينما يستولى الترك على الدولة فيحولونها من دولة مشتركة الى دولة مسيطرة فيأتي رد الفعل العربى متدرجا من اللامركزية الى الإنفصال والوحدة .

(٤)
محددان لدور مصر

الواقع الدولى :

١٣ ـ وهكذا نستطيع أن نقول أنه بصرف النظر عن الآمال والآلام ، عن الرغبات والمتغيرات ، عن الحكام والمحكومين ثمة محددان موضوعيان ثابتان نسبيا لدور مصر فى العالم العربي . أولهما محدد جغرافي اقليمى والآخر محدد تاريخي قومى . لقد تواليا عليها تاريخيا . أسبقهما المحدد الجغرافى الإقليمي . وهما متناقضان ، إذ يحدد كل منهما لمصر

دورا في العالم العربي مختلف المدى والمضمون والبواعث والاسلوب والإدارة . ولقد توقف الدوران كلاهما عام ١٨٨٢ بالاحتلال البريطانى وأصبحت مصر واقعيا – لا رسميا – أداة تؤدى بها بريطانيا الدور الذى تريده فى العالم العربى أو فى تأمين مواصلاتها الى مستعمراتها فيما يلى العالم العربى شرقا .

١٤ – ولكن الأمر سيحسم بعد نهاية الحرب الأوروبية الأولى وتقسيم الأمة العربية إلى دول بفعل الإستعمار الأوربي حسم بعد تمهيد طويل ومراحل متتابعة. أسبقها مرحلة الإمتيازات الأجنبية التى حصلت عليها الدول الأوروبية من سلاطين بنى عثمان . فرنسا عام ١٥٣٥. إنجلترا عام ١٥٧١ . هولندا عام ١٥٩٨. روسيا عام ١٧٠٠ . السويد عام ١٧٣٧ . نابولى عام ١٧٤٠ . الدنمارك عام ١٧٥٦ . بروسيا عام ١٧٩٧ . اسبانيا عام ١٧٨٢ . الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٠. بلجيكا عام ١٨٣٨ . البرتغال عام ١٨٤٨ واليونان عام ١٨٥٤ ، فانتقص من سيادة الشعب على وطنه بقدر ما حصلت عليه كل من تلك الدول من سلطة مباشرة على رعاياها فى الأرض العربية . المرحلة الثانية مرحلة الاقتطاع من جسم الأمة العربية و الإحتلال . احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وتونس عام ١٨٨١ واحتلت إنجلترا جنوب الجزيرة العربية عام ١٨٣٨ و الاحساء عام ١٨٧١ ومصر عام ١٨٨٢ والسودان عام ١٨٨٩ ومسقط عام ١٨٩٢ والكويت عام ١٨٩٩... الى آخره . المرحلة الأخيرة بعد الحرب الأوروبية الأولى فأصبح كل قطر دولة مستقلة عن الدول الأخرى وأصبحت مصر دولة مستقلة عن الدول العربية وأصبح العالم العربى دولا متجاورة . ولم يكن ذلك محددا جديدا لدور مصر فى العالم بل كان تقنينا دوليا لذات المحدد الجغرافى الإقليمى لدور مصر كما مارسته منذ بدء التاريخ حتى الفتح العربى ..

١٥ – من الجوهرى وقد وصل بنا الحديث إلى ما نحن عليه أن نلتفت الى حقيقة لا يجوز أبدا أن تغيب عن الانتباه ونحن نخصص الحديث لدور مصر فى العالم العربى . أن كل ما سنقوله ينطبق على كل دولة عربية . ان يكن التقسيم الدولى قد وقع على جسم الأمة العربية الواحدة فتحولت مصر الجزء الى دولة فأن كل دولة عربية كانت قبل الإقتطاع أو التقسيم جزءاً من الأمة العربية ثم أصبحت دولة . وان كانت دولة مصر قد قننت المحدد الجغرافى الإقليمى لدور مصر كما مارسته منذ بدء التاريخ حتى الفتح العربى . فإن كل دولة عربية قد قننت المحدد الجغرافى الإقليمي لدورها منذ بدء تاريخها حتى الفتح العربى . وان كان لمصر دور فى العالم العربى من حيث هى دول متجاورة فان لكل دولة عربية

دورا فى العالم العربى من حيث هى دول متجاورة . وان كانت مصر تعانى من التناقض بين المحدد الجغرافى الإقليمى لدورها فى العالم العربى وبين المحدد التاريخى القومى لهذا الدور فان كل دولة عربية لابد معانية هذا التناقض . كلنا فى هذا عرب وإنما نختلف درجات فى المعاناة وفى المقدرة على مغالبتها . وأخيرا ، فإن دولة مصر ما كان يمكن أن تكون مستقلة عن دول العالم العربى إلا لأن دول العالم العربى مستقلة عنها إذ الاستقلال علاقة ذات أطراف متعددة.

إذن ، إن كنا سنكمل حديثنا عن دور مصر فى العالم العربى ومحدداته ، فنرجو أن يكون مفهوما أننا نتكلم عن دور كل دولة عربية ومحدداته بدون إخلال باختلاف مضامين الأدوار والتفاوت فى المقدرة على أدائها . ثم نرجو الا ينزعج أحد كثيرا اذا تحدثنا عن المحدد الجغرافى الإقليمى لدور مصر الدولة وآثاره كما لو كان هو وحده الذى يحدد دور مصر . لا. إن المحدد التاريخى القومى مايزال يغالبه فى تحديد هذا الدور .إنما نريد أن نعرض لدور دولة مصر كما يلده المحدد الجغرافى الاقليمى عاريا ، حتى لا ينخدع أحد ممن يريدون تبنيه أو يزعم أن أحدا قد خدعه .

دولة مصر:

١٦ ــ التقنين الدولى الواقعى للمحدد الجغرافى الاقليمى هو أن مصر دولة والدولة ــ كما هو معروف ــ مؤسسة من عناصر ثلاثة : الشعب والإقليم والسيادة نعنى سيادة الشعب على إقليمه . وقد يعبر عن عنصر السيادة فى بعض كتب فقه القانون بكلمة السلطة وهو تعبير غير دقيق . إذ السلطة هى استعمال السيادة وليست السيادة ذاتها . مثلها مثل حق الانتفاع الذى هو استعمال لحق الملكية وليس الملكية ذاتها . والفارق بينهما أن السيادة لا تنتقل ولكن السلطة تنتقل. فبينما تبقى السيادة لصيقة بالشعب لا تفارقه ولا تنتقل إلى غيره ، قد يعهد الشعب بممارستها إلى من ينوب عنه فتصبح ممارستها " سلطة " ، وقد أصبح تقليديا فى أغلب الدول ومنذ القرن الثامن عشر أن تمارس السلطة بواسطة من مؤسسات للتشريع والتنفيذ والقضاء ، تتبع كلا منها أجهزة تنفيذية ذات وظائف نوعية مختلفة يقوم عليها موظفون معينون . كما أصبح تقليديا فى أغلب دول العالم أن تجرى ممارسة السلطات داخل الدولة طبقا لقواعد عامة ، مكتوبة أوغير مكتوبة ، ملزمة للكافة من أول الدستور ، أو القانون الاساسى ، الى القوانين ، الى اللوائح ، الى الأوامر الإدارية . تحرس قوتها الملزمة وتحمل الناس على الإلتزام بها قوة ردع مسلحة من الشرطة والمحاكم

والسجون والمشانق .وفيما بين حدى الوظيفة والردع يسهم كل قائم على وظيفة في أى جهاز تابع لأية مؤسسة من مؤسسات الدولة ، إسهاما مباشرا أو غير مباشر ، كبيرا أو ضئيلا ، ظاهرا أو خفيا ، فى تحديد الدور الذى تقوم به هذه المؤسسة الهائلة المنظمة المعقدة التى أسمها الدولة .

ومصر دولة :

إن هذا المحدد الجغرافى الإقليمى المقنن لايسمح بأن يسند الى مصر أو يطلب منها دورا لا تؤديه الدولة . وان هذا لعلى أكبر قدر من الاهمية خاصة بالنسبة الى الحديث العربى عن دور مصر فى العالم العربى . ذلك لانه لأسباب مشروعة تاريخيا ومصيريا عرفناها ، كثيرا ما يدور الحديث ، وتبنى الآمال ، على دور لمصر فى العالم العربى على أساس محدد بأحد عناصر دولتها ، فهو الدور الذى يتناسب مع كثافة شعب مصر الذى يبلغ ثلث مواطنى العالم العربى . أو هو الدور الذى يتناسب مع موقع أقليم مصر فى قلب العالم العربى وملتقى مشرقه ومغربه . أو هو الدور الذى يتناسب مع حجم التراكم الحضارى الذى حققه شعب مصر فى ميادين الفكر والعلم والفن والاقتصاد والسياسة .. الى آخره ، فيبقى الحديث مجرد تعبير عن دور مأمول غير قابل للتحقق ، وتؤدى خيبة الآمال ، أو كثيرا ما تؤدى ، الى الغضب أو اليأس بدلا من أن تكون حافزا على مراجعة الرؤى أو الرؤية . ويبقى الواقع كما هو : فى مصر لا تتحول الامال الى واقع ، ولا تتحول البواعث الى حركة، ولا تتحول الأفكار إلى أدوار الا بعد أن تمر بأمعاء تلك المؤسسة الهائلة المنظمة المعقدة التى إسمها دولة مصر فتهضمها ، فإما أن تتمثلها فتتحول الى قوة محركة الى دور معين وإما أن تلفظها ..

قد يقال أن دولة مصر هى – فى التحليل الأخير – مؤسسة الشعب فيها . وأنه اذا ما أراد الشعب لدولته أن تقوم بدور معين فى العالم العربى، أو فى غير العالم العربى حملها على أدائه فأدته .

هذا القول ليس صحيحا على اطلاقه . أنه أبسط من أن يكون واقعيا . إن الشعب فى مصر عنصر من عناصر دولة مصر . لا هو خارجها ولا هو فوقها . ولا هى مجرد أداة يؤدى بها الدور الذى يشاء على ما يريد . بل أن الدولة هى التى تفرض على الشعب ، من حيث هى واقع موضوعى ثابت نسبيا ، حدود ما يمكن أن يتحقق مما يريد ، والدور الذى يمكن أن يؤديه فيها و بها . حد ثابت – مثلا– من عناصر إقليمها فليس له أن يتنازل عن

شبر واحد منه لانه ملكية تاريخية مشتركة بين الأجيال المتتابعة ، وليس له أن يضيف اليه مالا سيادة له عليه . وحد ثابت ــ مثلا آخر ــ من عنصر السيادة فليس له أن يفرط في جزء منها وليس له أن يمدها الى ما يتجاوز حدود مصر إقليما وشعبا. من يفرط يردع في الداخل ومن يتجاوز يمنع من الخارج .

إنما قد يصدق ما يقال عن العلاقة بين الشعب صاحب السيادة والقائمين على ممارستها نيابة عنه فيما يسمى " السلطة " ، أى على العلاقة بين الشعب والحكومة بمعناها الواسع . بعد أن نسلم بأن هذه علاقة قائمة داخل الدولة لا خارجها ولا فوقها نستطيع أن نسلم بسهولة بأن الشعب إذا أراد يستطيع أن يحمل حكومته ــ بالأسلوب المناسب ــ على أن تؤدى الدور الذى يريد لدولته أن تؤديه فى العالم العربى ، ولو أدى ذلك الى تغيير النظام كله فى الدولة من أول الدستور الأسمى الى أدنى القرارات الادارية. ولكن حينما يقوم الشعب بهذا يغير نظام الدولة ولا يغير الدولة . يتغير النظام بالإرادة الشعبية وتبقى الدولة لا تتغير ولو أراد شعبها. **وهذا يعنى ما نرجوه أن يكون محل انتباه دقيق** . أنه حتى لو أراد شعب مصر أن تؤدى مصر فى العالم العربى دورا غير الذى تؤديه فحمل حكومته على أدائه ، أو استبدل بها حكومة أخرى ، أو غير نظام الدولة جملة فان هذا الدور لن يؤدى الا من خلال " دولة " مصر وبالتالى لن يتحقق منه إلا ذاك القدر الذى تسمح به طبيعة الدولة كتقنين لمحدد واقعى ثابت نسبيا . وعلى من يشك فى هذا أن يتأمل ما جرى ويجرى فى بعض الأقطار العربية . حيث فى الطريق من المنطلق القومى الى دولة الوحدة إستطاع بعض القوميين الوحدويين أن يصبحوا حكاما . فما الذى حدث ؟ شلت الدولة الإقليمية خطى حكامها القوميين وبدلا من أن يتقدموا إلى إلغاء حدود التجزئة ذهبوا يتفقدون حدود دولتهم ، وأصبحوا ــ بالرغم من حسن النوايا وتأييد الجماهير فى البداية ــ حكاما إقليميين .

١٧ ــ المرجع اذن لمعرفة دور مصر فى العالم العربى هو دولة مصر . فكيف يتحدد دور مصر فى دولة مصر ؟ اننا نقترب بهذا السؤال من عقدة موضوعنا الذى لم تكن التعقيدات السابقة الا مقدمة له أو مدخلا اليه .

لقد عرفنا مايعرفه الكافة من أن دولة مصر ــ كأية دولة ــ مؤسسة مركبة من عناصر ثلاثة : الشعب والإقليم والسيادة . وعرفنا أن الاقليم والسيادة حدان ثابتان نسبيا لا ينبغى لإرادة الشعب فى الدولة أن تتجاوزهما أو تتخلى عنهما . فى نطاق هذين الحدين

هل تترك الدولة للشعب مهمة تحديد الدور الذى تؤديه فى العالم العربى أو فى غير العالم العربى ؟. أو بصيغة أخرى ما مدى صحة إسناد الدور الذى تقوم به الدولة الى الشعب؟. ترجع أهمية هذا السؤال الى أنه لو صح أن الشعب هو صاحب القرار الأخير فى تحديد الدور الذى تقوم به الدولة لتحمل كل شعب مسئولية الآثار التى يحدثها هذا الدور من ناحية ، ولكان الموقف من أى دور تقوم به الدولة قبولا أو رفضا أو عداء هو موقف قبول أو رفض أو عداء من الشعب نفسه من ناحية ثانية ، ولكان من الأفضل تجاهل الدولة والتعامل مباشرة مع الشعب من ناحية ثالثة . ولأن السؤال مهم فيما نعتقد سنحاول أن نجيب عليه اجابة قاطعة وذلك بافتراض أنه لا توجد أية قيود على حرية الشعب فى التعبير عن إرادته واختيار القائمين على السلطة فى دولته .

١٨ ـ يبلغ الشعب فى مصر نحو خمسة وأربعين مليونا عددا (٧٠ مليونا الآن) . وهم مختلفون سنا وعقلا وفكرا ووعيا ومصالح ونوازع . ولم يحدث أبدا ، وليس من المتوقع أن يحدث أن يسأل كل منهم على حدا عن الدور الذى يريد لمصر أن تؤديه فى الوطن العربى أو أى دور آخر . ولو سئلوا لاختلفوا فيه . فنأخذ مصر ــ مثل أغلبية الدول فى العالم المعاصر ــ فى التعرف على ما يسمى ارادة الشعب . بتلك الحيلة التى ابتكرها الليبراليون الأوربيون فى القرن السابع عشر والتى قال عنها الفقيه الفرنسى كاريه دى ملبرج انها اخترعت اختراعا لحرمان الشعب من سيادته . نعنى التمثيل النيابى . تأخذ الدولة فى مصر ربع الشعب أو مايزيد قليلا عن عشرة ملايين وتعطيهم وحدهم الحق فى المشاركة فى تحديد الدور أو الادوار التى تقوم بها الدولة وتستبعد باقى الشعب . ثم تدعو أولئك الملايين العشرة من حين الى حين (المفروض كل خمس سنوات) الى أن ينتخبوا من بينهم عددا لا يزيد عن ٤٠٠ ليمثلوهم فى ادارة الدولة ومنها تحديد الدور الذى تقوم به مصر فى العالم العربى مثلا . ثم تستبعد الباقين . فمنهم من يلبى الدعوة ويختار ومنهم من يمتنع . ولم يحدث أن تجاوزت نسبة الملبين المشاركين فى عملية الانتخاب ٣٠% (ثلاثين فى المائة) من عدد الناخبين.

عندما يجتمع أولئك النواب ليجيبوا على السؤال : ماهو دور مصر فى الوطن العربى؟ قد يختلفون . فان اختلفوا فالدور الذى ستؤديه مصر ، كما صاغته الدولة ، هو رأى أغلبية الحاضرين ، أى نحو مائتى مواطن ، ولكن أجهزة الدولة كلها ستعلن أن ذلك هو الدور الذى حدده شعب مصر لدولتها بإرادته الحرة من خلال مؤسساته الدستورية بأسلوبه

الديموقراطى المتحضر . وستقرها على ذلك كل الدول فى العالم العربى ، أو فى العـــالم كافة ، التى تأخذ فى التعرف على إرادة شعوبها بتلك الحيلة النيابية . وهكذا تدعم الدولـــة ما تفرضه على إرادة الشعب من حدي الإقليم والسيادة أو تحـــافظ عليـــها ضـــد الارادة الشعبية بمسخها رأى الشعب فى رأى الأقلية. الواقع أنها أقلية الأقلية التى تصوغ فعـــلا الدور الذى تقوم به دولة مصر فى العالم العربى وكل دور آخر .

١٩ ـ ونذكر فنقول أن مصر فى كل هذا ليست الا مثلا من دولة حديثة لكـــل الـــدول الحديثة . بما فيها دول العالم العربى ذاته . فى هذا العصر لا توجد شعوب خارج أقفاص الدول . حتى الذين فقدوا دولتهم يتطلعون إليها أو يقاتلون من أجل استردادها من نوافـــذ أقفاص الدول المضيفة أو الدول الحليفة انه عصر الدول ذات الشـــعوب وليـــس عصـــر الشعوب ذات الدول . سواء أعجبنا هذا أم لم يعجبنا . وحتى لو صدق فى الدول ما قالـــه نيتشه من " أن الدولة أكثر صفاقة من أى صفيق.. انها تكذب بصفاقة وتقول أنا الشـــعب . وكل ما تملكه سرقة . وكل شئ فيها زائف ". إنها ــ على أى حال ــ أقل صفاقة وكذبـــا وزيفا من حاكم فرد يقول أنا الشعب ويكذب ويسرق وان كانت إرادة الشـــعب الضحيـــة غائبة فى الحالتين .

٢٠ ـ وتتميز الدولة بأن خارج مؤسساتها لا يبقى الشعب راكدا بل هو يلمس ويراقـب وينقد أو يؤيد الدور الذى تؤديه الدولة والذى يتحمل هو عائده النهائى مكسبا أو خســـارة ، نصرا أو هزيمة ، تقدما أو تخلفا. ويلعب المثقفون والمتعلمون والكتاب والصحافة وأجهزة الاعلام المرئى والمسموع والشائعات والنكت أدوارا مؤثرة ــ بالغة التأثير ــ فى تكويـــن ما يسمى بالرأي العام الشعبى الذى لا يكف عن التفاعل مع الـــرأى الخـــاص الحكومـــى متأثرا به مؤثرا فيه على وجه تتوقف حصيلته على قوة التأثير النسبية بين طرفيه العـــام والخاص وفى هذا تفترق الدول . و تنتمى مصر الى مجموعة دول العـــالم الثـــالث ، أو النامى ، أو المتخلف حيث لا شبهة فى أن الحكومات تملك من أدوات التأثير فى الـــرأى الشعبى العام ما هو أقوى بمراحل مما تملكه الشعوب مـــن أدوات التـــأثير فـــى الـــرأى الحكومى الخاص . مع الاعتراف بهذا ، لا يمكن انكار أن الرأى العام فى مصر يملك قوة تأثير لا تملكها الا قلة قليلة من شعوب العالم الثالث . وراء ذلك أسباب تاريخية وحضارية وعلمية وخبرات متراكمة من التعامل مع مختلف أنواع الحكام ومختلف نظم الحكم وقـــد لفتتـــنا دراسة تاريخية الى خاصية قد تكون ذات علاقة بما تعلمه مـــن النيـــل وواديـــه

الخصيب . الصبر على النيل حتى يفيض وينحسر ثم يزرع ، والصبر على الزرع حتى ينمو ويثمر ثم يحصد . أعتقد أن ذلك قد علمه أن يغالب رغباته حتى لا يفصل بين حركته وبين وقتها المناسب . وهكذا فهمنا لماذا يقوم كل جيل من شعب مصر بثورة بالرغم من ألا علاقة وثيقة بين أسباب الثورات وتوالى الأجيال . جيل أحمد عرابى عام ١٨٨٢ . جيل مصطفى كامل ١٩٠٧ . جيل سعد زغلول عام ١٩١٩ . جيل أحمد حسين وفتحى رضوان عام ١٩٣٥ . ثم جيل عبد الناصر ١٩٥٢. ولماذا يبدو فيما بين ثوراته لا مباليا . قد نكون إلتفتنا الى ما رغبنا الالتفات اليه ، قد نكون أخطأنا فهم التاريخ ولكن كل هذا لايهم .

المهم هو أن الشعب فى مصر غير راكد وأن فى مصر رأيا عاما يحيط بمؤسسات الدولة بعضه مطبوع وبعضه مصنوع ولكنه على حاليه مؤثر فى صياغة الدور الذى تقوم به دولة مصر فى العالم العربى . وهو دور محل خلاف كبير بحكم التفاوت الكبير فى درجات الوعى الشعبى وبحكم التعارض الكبير بين مصالح الافراد والجماعات . ولكن هذا الخلاف ينصب على ماهية الدور الذى تقوم به مصر فى العالم العربى . أما عن مبرره فهو واحد لدى كل المختلفين المنطلقين اليه من أن مصر دولة .

نضرب مثلا مما قاله عالم دارس جاد من مصر التى يحبها حبا جما وله فى فكرها قدر يعتد به من التأثير .

٢١ ــ قال الدكتور جمال حمدان فى كتابه المثير عن " شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان : " أننا قط لم نكن أحوج مما نحن الان الى فهم كامل معمق موثق لوجهها ووجهتنا ، لكياننا ومكاننا ، لإمكانياتنا وملكاتنا ، ولكن أيضا لنقائصنا ونقائضنا . كل أولئك بلا تحرج ولا تحيز أو هروب. ففى هذا الوقت الذى تأخذ مصر منعطفا خطرا ، ولا نقول منحرفا خطأ ، فكل انحراف مهما طال أو صال أو جال الى زوال ، ولا يصح فى النهاية الا الصحيح ، فى هذا الوقت الذى تتردى مصر الى منزلق تاريخى مهلك قوميا ويتقلص حجمها ووزنها النسبى جيوبوليتيكيا بين العرب وينحسر ظلها ، نقول فى هذا الوقت تجد مصر نفسها بحاجة أكثر من أى وقت مضى الى اعادة النظر والتفكير فى كيانها ووجودها ومصيرها بأسره : من هى ، ما هى، ماذا تفعل بنفسها ، بل ماذا بحق السماء يفعل بها ، إلام ، والى أين ...الخ ... الخ ؟ بالعلم وحده فقط ، لا الاعلام الاعمى، ولا الدعاية الدعية ولا التوجه القسرى المنحرف المغرض يكون الرد. "

" ان مصر تجتاز اليوم أخطر عنق زجاجة وتدلف أو تساق الى أحرج اختناقـــه فـــى تاريخها الحديث وربما القديم كله . ان هناك انقلابا تاريخيا فى مكان مصـــر ومكانتـــها . ولكن من أسفل الى أسفل والى وراء . نراه جميعا رأى العين ولكنا فيما يبدو متفـــاهمون فى صمت على أن نتعامى عنه ونتحاشى أن نواجهه " فى عينه " ووجها لوجه ونفضل أن ندفن رؤوسنا دونه فى الرمال . لقد تغيرت ظروف العالم المعاصر والعالم العربـــى مـــن حولنا ، فلم يعد الاول بعيدا نائيا ولا عاد الثانى مجرد أصفار على الشمال ".

" ففى عصر البترول العربى الخرافى ، نخدع أنفسنا وحدنا إذا نحن فضلنـــا فـــى أن نرى أن وزن مصر وثقلها ، حجمها وجرمها ، قامتها وقيمتها ، قوتها وقدرتـــها ، بيـــن العرب وبالتالى أيضا فى العالم ككل ، قد أخذت تتغير وتهتز نسبيا فى اتجاه ســـلبى وان كانت هى فى صعود فعليا . ولم تعد مصر بذلك تملك ترف الإستخفاف والإستهتار بمـــن حولها من الأشقاء أو الإنعزال المريض المتغطرس العاجز الغبى الجهول الذى يغطـــى عجزه وتراجعه وإرتداده بكبره المغرور وصلفه الأجوف وعنجهيتـــه القزميـــة ، والـــذى يعوض مركب نقصه بإجترار الماضى وأمجاده ، وتمجيد العزلة والنكوص باستثارة أدنـــى غرائز الشوفينية البلهاء من هنا فإن مصر فى وجه هذه المتغيرات بحاجة ماسة جدا إلـــى إعادة نظر حادة فى ذاتها وإلى مراجعة للنفس أمينة وصريحة ، بلا تزييف أو تزويـــق ، بلا غرور أو ادعاء ، بلا زهو ولا خيلاء ، ولكن كذلك بلا تهرب أو اســـتخذاء ، وبـــلا تطامن أو إستجداء.

٢٢ ـــ اذا استطعنا الفكاك من أسر البلاغة الآسرة وجردنا هذا القول مـــن أهـــاب شحنة عاطفية متأججة بحب مصر نجد أنه يريد لمصر أن تؤدى فى العالم العربى وعصر البترول الخرافى دورا ينقذها مما يرى أنها منزلقة إليه منزلقا مهلكا وتسترد به حجمـــها ووزنها بين العرب وبالتالى مكانها ومكانتها فى العالم كله. أى دور يحقق مصلحة مصر.

نشر هذا الرأى فى القاهرة عام ١٩٨٠ أى بعد إنعقاد إتفاقيات كامب ديفيـــد يـــوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ وإبرام معاهدة السلام مع المؤسسة الصهيونية المسماة إسرائيل يـــوم ٢٦ مارس ١٩٧٩ وتصديق مجلس الشعب عليها يوم ١٠ أبريل ١٩٧٩ ، وما عـــاصره ممـــا أسموه المقاطعة العربية لمصر، وما ترتب على كل هذا من أفعال وردود أفعال أججـــت معركة الصراع الفكرى حول دور مصر فى العالم العربى وأثارت كوامن قوى الصـــراع الإجتماعى ولم تزل .

ولكن على أساس مصلحة مصر أيضا كمحدد لدورها فى العالم العربى كان يمكن أن يقال للدكتور جمال حمدان أو ردا عليه : " سيدى ، مادمت تسلم بأن مصر التى تحبها كانت هى فى صعود فعليا بالرغم من كل ما تبكيه وتندبه فلماذا تبدد طاقتك فى العويل على ما فقدته مصر الصاعدة ، ألسنا نحتكم الى ما يحقق مصلحة مصر ؟." الذى قيل فعلا ردا على كل منكر للدور الذى قامت به حكومة مصر فى العالم العربى ابتداء من عام ١٩٧٠. أن مصر قد فهمت أخيرا فهما كاملا معمقا موثقا وجهها ووجهتها فاستنقذت ذاتها من منزلق تاريخى مهلك وواءمت بين حجمها وظلها .. الخ . فحققت مصلحتها . ومادام المعيار " عبقرية المكان " فان ما قيل أكثر اقناعا مما قال . ولو كان المعيار عبقرية الزمان لكانوا جميعاً مخطئين .

على أى حال هذا مثل من خلاف فى ماهية دور مصر فى العالم العربى لا نطيل فى سرد مفرداته . أولا لأنه ما يزال قائما ، وثانيا لأننا شركاء فيه منذ بدايته مشاركة لم تنقطع إلا مائة يوم كنا خلالها مع آلاف من شركاء الموقف ضيوفاً على الحكومة فى أحد سجونها فلا نريد أن نفسد بحثنا عن المحددات الموضوعية لدور مصر الدولة أو دولة مصر فى العالم العربى بما قد يكون متأثرا بالتجربة الذاتيه . فنلفت فقط الى أن " مصلحة مصر " محدد واقعى موضوعى ثابت نسبيا لإرادة عنصر الشعب فى دولة مصر يضاف الى المحددين الآخرين : سلامة الإقليم وكمال السيادة . أما ما هى مصلحة مصر فمحل خلاف بين الأفراد والجماعات ومتغيرة من زمان الى زمان .

٢٣ ــ إنطلاقاً من واقع أن مصر دولة يتحدد دورها فى العالم العربى ، إذن ، بثلاثة حدود واقعية وموضوعية وثابته نسبياً . سلامة أرضها وسيادة شعبها و مصلحتها . وتترتب على هذا نتائج ذات أهمية حيوية بالنسبة الى كل الذين يهمهم أن يعرفوا أو يتوقعوا دوراً لمصر فى العالم العربى . نعنى دولة مصر . وبالنسبة الى كل الذين يحاولون دفعها أو تحريضها أو إغرائها على أن تقوم فى العالم العربى بالدور الذى يتمنونه :

أولا : ان كل المشاعر العاطفة أو العاصفة ، كل الكلمات الرفيعة أو الوضيعة ، كل الحب أو السب ، وكل أسباب الإغراء أو الإغواء ، لن تحمل دولة مصر على أن تؤدى فى العالم العربى دورا لا يتفق مع سلامة أرضها وسيادة شعبها ومصلحتها . وعلى العرب الذين يريدون لدولة مصر دورا فى العالم العربى غير ما تؤديه أن يحترموا دولة

مصر ويحترموا لغتهم فيعفوا عن مغازلة الشقيقة الكبرى ويكفوا عن ابتذال عاطفة الاخوة وليتفكروا فيما أراد الله أن يعلمهم إياه حين قص عليهم نبأ أخوين من بنى آدم قتل أحدهما أخاه . لا. ان دولة مصر لا تقوم بأى دور فى العالم العربى الا إذا إقتنعت بأنه يصون سلامة أرضها . ويحفظ سيادة شعبها ، ويحقق مصلحتها ، أو — على الأقل — لا يضرها فى واحد من هذه المحددات الثوابت ضررا حالا أو مؤجلا .. اما اذا وصل الامر حد مطالبة دولة مصر بأن تقوم بدور يصون سلامة أى أرض على حساب سلامة أرضها ، أو يحفظ سيادة شعب على حساب سيادة شعبها أو يحقق أية مصلحة على حساب مصلحتها فهو حلم وليس علماً . والأحلام تبددها اليقظة ودولة مصر يقظة لاشك فى هذا .

ثانياً : لا يصح أبدا . مهما تكن الظواهر الشكلية والدعاوى المضللة أن ينسب الى دولة مصر أى دور يمس سلامة أرضها ولو فى شبر، وينتقص من سيادة شعبها ولو على متر، ويضر مصلحتها بأى قدر فان وقع فهو دور الذين أدوه طوعاً أو كرهاً ولو كانوا من أبناء مصر . ولو كانوا جيلاً كاملاً من شعب مصر . الإكراه معروف الأثر سواء كانت وسائله ظاهرة أم خفية . وبه لا يكون الفاعل المباشر إلا أداة فى يد فاعل ظاهر أو خفى . أما التطوع فهو خيانة لمصر عقوبتها — فى مصر — الإعدام كائنا من كان الفاعل ومن شاركوه تحريضاً أو اتفاقاً أو مساعدة . فلا يصح أن ينسب الى دولة مصر دور ينال من سلامة أرضها أو سيادة شعبها أو مصلحتها ولو كانت أدواته من أبناء مصر إذا كان الفاعلون الحقيقيون دولا باغية وكان المحرضون والمتفقون والمساعدون الذين حضروا المسرح للدور المنسوب إلى دولة مصر منثورين أفرادا وجماعات وقوى وأحزابا وحكومات وحكاما على أرض العالم العربى أو أرض العالم الغربى ولا يجدى فى إخفاء الأدوار أن ينكر المجرمون أدوارهم . نرجو ألا يهرب هذا الذى نقول من دائرة الإنتباه الجاد لدى كل الجادين لأنه خلط خطير بين دور الجانى ودور المجنى عليه . خاصة وانه قد ثبت أخيرا أن كثيرا من المنكرين كانوا متنكرين ، وقد سقطت الاقنعة وهم يزحفون الى المسرح ، أو يقفزون اليه ، ليؤدوا ذات الدور الذى أنكروه واستنكروه بإتقان فنى أكثر جاذبية من أداء الممثل الذى غاب وان كانت الرواية واحدة والمخرج واحدا .

ثالثا : ان دولة مصر ، مثل أية دولة عربية ، مثل أية دولة فى العالم ، عضو فى الأسرة الدولية فهى غير قادرة على أن تؤدى فى العالم العربى الدور الذى تختاره بعيدا عن قواعد وتقاليد وأحكام القانون الدولى . أو بعيدا عن توصيات وقرارات المنظمات

الدولية . أو بعيدا ــ بوجه خاص ــ عن موازين القوى فى العالم وانا لنعرف من أمر قواعد وتقاليد وأحكام القانون الدولى وتوصيات وقرارات المنظمات الدولية أنها غير ملزمة الا لمن يقبلها . ولكنا نعرف أيضا أن موازين القوة بين الدول ذات ثقل واقعى لا تحتمله دولة الا بقدر واقع ثقلها الخاص . و بالتالى فان دولة مصر لا تستطيع أن تؤدى فى العالم العربى دورا أكبر من طاقتها كدولة صغيرة فقيرة بالنسبة الى دول العالم الغنية الكبيرة . وما لا تستطيع دولة مصر أن تؤديه لا يتوقع منها ولا يطلب .

٢٤ ــ هذا هو المحدد الجغرافى الاقليمى المقنن دوليا وهذه هى نتائجه . استجابة وتطبيقا لهذا المحدد قال قائد ثورة ١٩١٩ سعد زغلول أن الدول العربية أصفار ، لا احتقار لها ولكن طبقا لمقاييس المكاسب والخسائر التى تصيب مصر من علاقاتها بالدول العربية . لهذا يستثنى من تقييمه السودان حيث يملى النهر على مصر أوامر المحدد الجغرافى الاقليمى مع كل قطرة ماء تأتى من السودان . فيقول سعد زغلول نفسه عام ١٩٢٤ ان مصر لا تكون حرة بدون السودان لان امتلاك السودان معناه التحكم فى مصر. وستتحطم كل جولات المفاوضات المصرية الانجليزية حول جلاء القوات البريطانية عن مصر ذاتها على صخرة السودان . ويصل الامر الى حد أن يقول مصطفى النحاس " تقطع يدى ولا يقطع السودان " . وهذا فى حين يصدر اسماعيل صدقى وزير داخلية مصر عام ١٩٢٥ أمرا باعتقال الفلسطينيين الذين تظاهروا فى القاهرة ضد وعد بلفور الذى كان يهدد باقتطاع فلسطين من الجسم العربى . وتقف حكومة محمد محمود ضد الثورة الفلسطينية عام ١٩٢٩ وتدينها وتكتب جريدة السياسة الناطقة بلسان حزب الاحرار الدستوريين مقالات متتابعة بقلم الدكتور محمد حسين هيكل يعدد فيها الفلسطينيين الذين يثيرون الرأى العام فى مصر. لقد كانت المفاضلة بين دور التأييد لثورة فلسطين وبين دور المحافظة على الامن الداخلى لمصر فاختار المحدد الجغرافى الاقليمى الدور الثانى لمصر . وفى عام ١٩٣٧ لا يرى مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد فى تحويل فلسطين الى وطن للصهاينة الا سببا لعدم الاطمئنان على سلامة اقليم دولة مصر فيقول أنه لا يستطيع الاطمئنان وهو يفكر فى قيام دولة يهودية على حدود مصر اذ ما الذى يمنع اليهود من ادعاء حقوق لهم فى سيناء فيما بعد . ويبلغ تأثير المحدد الجغرافى الاقليمى فى صياغة دور مصر فى الوطن العربى أن تطرح حكومة الوفد خلال مفاوضاتها مع الانجليز عام ١٩٥٠ــ١٩٥١ فكرة اجلاء قوات الاحتلال البريطانى من مصر الى غزة . وتأتى ثورة ١٩٥٢ فلا يرى عبد الناصر فى العالم العربى الا دائرة تحيط بمصر كما قال

في" فلسفة الثورة ". ان العالم العربى هنا هو العالم المجاور أو المجال الحيوى لمصر كما عبر عنه محمد ابراهيم كامل وزير خارجية السادات الأسبق وهو يحاور رئيســه خــلال مفاوضات كامب ديفيد . على ضوء المحدد الجغرافى الاقليمى وليس على ضوء أى محدد آخر يفهم فهما صحيحا دور مصر فى ابرام سلسلة متتابعة من الاتفاقات مع من يريد مــن الدول العربية . ابتداء من اتفاقية الجامعة العربية عام ١٩٤٤. واتفاق مصــــر وســورية والسعودية عام١٩٥٣ ، الذى ستنضم اليه اليمن ، ومقاومة مصـــر لمشــروع ايزنـــهاور وحلف بغداد . واتفاقيات الدفاع المشترك وتأليف أول قيادة عسكرية موحدة فـــى اكتوبــر ١٩٥٥ . انها الدول المتجاورة جغرافيا تشترك فى الاعداد لتحقيق مصالح مشتركة كمــــا تفعل كثير من الدول المتجاورة سواء أكانت عربية أو غير عربية. وعلى ضوء المحـــدد الجغرافى الاقليمى يفهم فهما صحيحا لماذا لم تقم مصر ولا أية دولة عربية بدور عسكرى هجومى ضد اسرائيل منذ أن قامت اسرائيل ، وكانت حروب تلك الــدول عــام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ حروبا دفاعية . ذلك لان دولة مصر ، وأية دولة عربية ليسـت إلا جارة قريبة أو بعيدة عن أرض فلسطين . وعلى ضوء المحدد الجغرافى الاقليمى يفهم فهما صحيحا دور مصر والدول العربية جميعا فى قصر معركة تحرير فلســطين علــى استرداد الأرض التى احتلت عام ١٩٦٧ ولو مقايضة على الارض التى اغتصبــت عــام ١٩٤٨ . لانها جميعا دول مستقلة بعضها عن بعض ومستقلة جميعها عن فلســطين ومــا اسرائيل بالنسبة اليها ــ كدول ــ الا خطرا توسعيا يهدد حدود أقاليمها أو مصادر ثروتها. وعلى ضوء هذا المحدد الجغرافى الاقليمى صدق ما قلناه فى ابريل ١٩٧٠ فى محاضرة القيت فى نقابة المحامين بعمان " الأردن " من أن الدول العربية منفردة أو مجتمعة لـــن تحرر فلسطين .

ثم يأتى السادات فيتعامل بجسارة مذهلة مع هذا المحدد الجغرافى الاقليمـــى وحـــده ، غير متأثر بأى محدد غيره ، فيخوض آخر معركة مشتركة مع الدول العربية عـلم ١٩٧٣ كتجربة أخيرة . وما أن تعبر القوات الاسرائيلية القناة فى اتجاه القاهرة حتى ينهزم هــو بالرغم من انتصار القوات المسلحة من قبل واعترافه هو بمقدرتها على تحقيــق النصـر على الذين عبروا القناة ، فيملى عليه المحدد الجغرافى الاقليمى اتفاقيات كـــامب ديفيـد املاء فرعونيا خالصا . اسرائيل جارة مصر الشرقية . اسرائيل دولة مجــاورة لدولــة . أثبتت الحروب المتعاقبة أن مصر الدولة غير قادرة على هزيمتها وفرض ارادتها عليها . فالبديل الدولى المتاح الذى يتفق مع كون مصر دولة هو أن تؤمــن حدودهــا الشــرقية

بالصلح مع جارتها . هذا هو جوهر اتفاقيات كامب ديفيد وهو ليس من اختراع السادات . ان كل الفراعنة من قبل الفتح العربى حاربوا جيرانهم واصطلحوا معهم حسب متغيرات القوة النسبية فيما بينهم . وكلهم ، بما فيهم السادات ، كانوا يؤدون الدور الذى يتسق مع المحدد الجغرافى الاقليمى .

الذى اخترعه السادات هو أنه تجاوز مقتضيات هذا المحدد وانحاز الى المؤسسة الصهيونية ضد العرب ، فاعترف باسرائيل ، والاعتراف باسرائيل ليس موقفا محايدا بل هو انحياز الى الصهيونية . اذ أن الصراع العربى الصهيونى يدور منذ نصف قرن حول أرض فلسطين لمن تكون ومن صاحب الحق فيها ، الشعب العربى أم الشعب اليهودى . فمن يعترف أنها من حق الشعب اليهودى يكون قد أنكر حق الشعب العربى . وليس ثمة موقف وسط كائنا من كان الذى يعترف باسرائيل وكائنة ما كانت الأسباب التى ينتحلها .

ثم أنه قبل زيارة السادات للقدس يوم ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ كانت الضغوط الدولية التى لم تتوقف منذ يونيو ١٩٦٧ قد انتهت الى أسلوب يحفظ ماء وجه الدول العربية ويجمعها مع اسرائيل على مائدة مفاوضات دولية تعقد فى جنيف . وكان لاسرائيل شرط هو أن تبدأ المفاوضات بدون شروط مسبقة . تلك كانت أمنية اسرائيل الى ماقبل شهر واحد من الموعد الذى كان محددا لانعقاد مؤتمر جنيف . وفجأة زار السادات القدس فقبرت كل الجهود الدولية التى بذلت من أجل الوصول الى صيغة مؤتمر جنيف . ثم عقد السادات إتفاق كامب ديفيد المسمى " إطار السلام فى الشرق الاوسط " ووضع مع الصهاينة الشروط المسبقة لأية مفاوضة .. تقول الوثيقة تحت العنوان الفرعى " المبادئ المرتبطة " أنه يجب – ليس على مصر فقط – بل على مصر والاردن وسورية ولبنان أن يعترفوا باسرائيل اعترافا كاملا ، وأن يلغوا المقاطعة الاقتصادية ، وأن يقيموا معها علاقات طبيعية وأن يستكشفوا معها امكانية التطور الإقتصادى فى اطار اتفاقية السلام النهائية بهدف المساهمة فى صنع جو السلام والتعاون والصداقة .

هذا هو الدور الذى اخترعه السادات متجاوز المحدد الجغرافى الاقليمى المقنن فى دولة مصر. اذ أن هذا المحدد لا يخول مصر حقاً فى أن تنظم الحياة على غير اقليمها ، ولا أن تنوب عن شعب غير شعبها ، ولا أن تشترى مصلحتها بمصلحة غيرها . وانى لعلى يقين من أنه لو كان السادات قد بقى فى نطاق المحدد الجغرافى الاقليمى وهو يؤدى الدور الذى اريد له على مسرح كامب ديفيد وقصر اتفاقياته على دولة مصر بحدودها

اقليما وسيادة ومصلحة لاعتبرت كل الدول العربية ، علنا أو خفية ، أنه لم يفعل شيئا غير الذى يفعلونه هم . ولتذكروا جميعا أنهم قد سبقوه الى التعهد فى الدار البيضاء على الا تتدخل دولة عربية فى شئون دولة عربية أخرى .

اذا استبعدنا الاختراعات والنزوات والأساليب الغربية فى الأداء ، يبقى أن ماهو جوهرى فى الدور الذى أداه السادات فى العالم العربى ليس اختراعا و لا نزوة و لا غريبا بل هو ترجمة دقيقة وحرفية لدور مصر فى العالم العربى كما يفرضه المحدد الجغرافى الاقليمى المقنن فى دولة مصر . على هذا الوجه نفهمه فهما صحيحا ، ونفهم أن كثيرين ممن وقفوا ضد السادات لم يقفو ضد نتائج المحدد الجغرافى الاقليمى ولكن ضد أسلوب أنور السادات فى الاستجابة الى هذا المحدد وترجمته فى اتفاقيات . باختصار أنهم كانوا وما يزالون ضد شروط الصفقة ومدى ملاءمتها لمصلحة مصر ولم يكونوا ضد الصفقة ذاتها .

مصر العربية :

٢٥ ــ فى مواجهة المحدد الجغرافى الاقليمى لدور مصر فى العالم العربى ثمة المحدد التاريخى القومى : مصر جزء من الأمة العربية . ان الدور الذى يحدده انتماء مصر القومى ليس فى حاجة الى حديث طويل . فالاقليم ليس مصر الواقعة فى الشمال الشرقى من أفريقيا بل الوطن العربى كله بما فيه مصر. والمصلحة ليست مصلحة مصر ولكن مصلحة الأمة العربية كلها بما فيها مصلحة مصر. وبه يصبح تحرير الوطن العربى كله من المغتصبين والمستعمرين والمسيطرين دورا لمصر. وبه يصبح الغاء تجزئة الوطن العربى واقامة دولة الوحدة تجسيدا لسيادة الشعب العربى على وطنه دورا لمصر وبه تصبح المحافظة على ثروات الوطن العربى بما فيها ما يوجد فى مصر، وتوظيفها فى خدمة تقدم الشعب العربى كله اقتصاديا واجتماعيا وروحيا دورا لمصر. وبه يصبح ثقل مصر فى موازين القوة الدولية هو ثقل الامة العربية . وبه لن تكون اسرئيل جارة خطرة لمصر تردع أو تقبل ، بل تكون فلسطين أرضا مغتصبة من الوطن العربى ويكون على الصهاينة أن يرحلوا منها سلما أو حربا ، ويكون هذا هو دور مصر.

ولكن أى مصر هذه ؟

انها مصر الشعب العربى وليست مصر الدولة الإقليمية . ولقد عرفنا من قبل مدى ما يستطيع الشعب فى الدولة . ولكننا عرفنا أيضا أن الشعب العربى فى مصر ليس راكدا . ان نسيج أمته يشده اليها وتراث أربعة عشر قرنا يصوغ فكره وتقاليده وآدابه . وهو لم يكف ولا يكف عن مقاومة العزلة والانعزال وصياغة دور مصر فى الوطن العربى كلما استطاع أن يفلت من حصار مصر الدولة أو كلما تركته الدولة بدون حصار . فنراه ولم يزل يقوم بدوره الحضارى على مستوى الوطن العربى كله علما وتعليما وثقافة وفنا وتعبيرا . ان ٣٥% من القوى العاملة المؤهلة فى الوطن العربى من مصر . ومـا يزل الازهر فى مصر. ونصف خريجى الجامعات العربية من خريجى جامعات مصر . إنه المحدد الذى يحمل عشرات الالوف من أبناء مصر الى أطراف الوطن العربى راغبين ثم يقف بهم عند حدوده لا يعبرون العراق الى ايران ، ولايعبرون سورية الى تركيا . ولايعبرون السودان الى الحبشة. ولايعبرون المغرب الى اسبانيا ، مهما تكن المغريات ، خوفا من الشعور بالغربة التى لا يشعرون بها فى الوطن العربى انه المحدد الذى أفشل القطيعة كما صاغها حكام الدول العربية فلم يشعر أحد فى مصر بأن قطيعة الدول قد أثرت فى عدد الوافدين الى مصر من أطراف الوطن حيث القاهرة عاصمتهم قبل عواصمهم . انه المحدد الذى دفع بالقادرين من مصر الى القتال عام ١٩١٢ دفاعا عن ليبيا ضد الغزو الايطالى . الذى حرك جماهير مصر احتجاجا على وعد بلفور . الذى أملى على المرحوم الشيخ حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين أن يرد على طه حسين بأن من يحاول سلخ قطر عربى من الجسم العام للامة العربية يعين الخصوم الغاصبين على كسر شوكة وطنه وإضعاف قوة بلاده .. ويحمل مصطفى النحاس زعيم الوفد على أن يوفد عبد الرحمن عزام مندوبا عنه الى المؤتمر الاسلامى الذى انعقد فى القدس عام ١٩٣١ ليشارك فى قرار الدعوة الى توحيد البلاد العربية واستنكار تجزئة فلسطين . والذى عبر عنه مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد حينما كتب فى مجلة الهلال عام ١٩٣٩ مقالا يدافع فيه عن عروبة مصر بعنوان "المصريون عرب" . وهو المحدد الذى حمل حكومة الوفد على أن تمنع سفر العمال من مصر ليحلوا محل العمال فى فلسطين خلال ثورة ١٩٣٦ وهو المحدد الذى دفع بالمتطوعين من مصر فسبقوا دولتهم الى أرض المعركة فى فلسطين عام ١٩٤٨ . المحدد الذى منع الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر عام ١٩٥٠ من أن يقبل الصلح مع اسرائيل فى مقابل جلاء القوات البريطانية من مصر. المحدد الذى أوحى الى عبد الناصر عام ١٩٥٦ أن يسمى

قناة السويس "قناة العرب" . ولقنه عام ١٩٥٧ ما قاله امام مجاس الأمـــة : " ان القوميـة العربية هى امضى اسلحتنا فى الدفاع عن وطننا سواء فى ذلك حدودنــــا المصريـــة أو حدودنا العربية الشاملة ". وسمح له بأن يرسل قوات من مصر الى سورية. وأن يحقـــق الوحدة بين مصر وسورية ويقول عام ١٩٥٨ " اذا كان العالم قد عاش من قبـــل عصـــر النهضة ثم عاش بعد ذلك عصر الفضاء فاننا نعيش اليوم عصر الوحدة العربيـــة ". انـــه المحدد الذى فتح الطريق امام مصر لتساند بالبشر والمال والسلاح والسياســـة حركـات التحرر العربى فى كل قطر عربى ، و تحمل قواتها لتقاتل على قمم جبال اليمن . وهـــو المحدد الذى وثقه الشعب العربى فى مصر فى دساتيره المتتابعة منـــذ ١٩٥٦ : مصـــر جزء من الامة العربية . ثم ترجمه الى دور فى الوطن العربى فأضاف فى دستور ١٩٧١ : ويعمل شعبها على تحقيق وحدتها الشاملة ، فألزم دولته أو حكومته بأن تؤدى هذا الدور أو تسمح للشعب بأن يؤديه . وأخيرا هو المحدد الذى ما يزال يدفع جماهير مصـــر الـــى محاصرة اتفاقيات كامب ديفيد و افشالها بالرغم من انها اصبحت قانونا من قوانين دولته ، ويلغى منها كل النصوص التى يتوقف نفاذها على قبول الشعب مثل التطبيـــع والصداقـــة والكف عن مناهضة الصهيونية .

(٥)
المشـــكلة

الازدواج :

٢٦ ـــ لقد أردنا أن نثبت بالامثلة الســـابقة أن دور مصر فى العالم العربى متـــردد بين قوتى جذب أحدهما اقليمي والآخر قومي. وان هذا التردد قـــد أدى الـــى أن مصـــر بقيـــادة ذات الحكام تؤدى أدوارا متنـــاقضة فى الظروف المختلفة ، وبالتالى نســـتطيع أن ننتهى الى عدة معطيات خاصة بدور مصر فى العالم العربى .

أولا : ان لمصر دورا إيجابيا دائما فى العالم العربى سواء التزمت المحدد الجغرافى الاقليمى حيث العالم العربى هو الدول المجاورة والمجال الحيوى . أو التزمت المحدد التاريخى القومى حيث العالم العربى هو عالم الأمة العربية التى هى – أىمصر – جزء منه تاريخيا ومصيريا . و بالتالى فان عزل مصر أو انعزالها عن العالم العربى مستحيل. ويكون من العبث الواهم محاولة عزلها أو انعزالها او تصور مستقبل عربى بدون دور لمصر أو مستقبل مصرى بدون دور عربى . لن يحدث هذا دوليا الا قهرا وحين تفقد الدولة ارادتها ، ولكنه لن يحدث شعبيا ولو بالقهر ولو فقدت الدولة إرادتها .

ثانيا : ان تأثير المحدد التاريخى القومى على دور مصر فى العالم العربى أقوى من تأثير المحدد الجغرافى الاقليمى . لا يرجع هذا الى مقدرة الشعب العربى فى مصر على أن يفرض على دولته الادوار التى يؤديها ولكن يرجع الى التقاء المحددين المتناقضين على مضامين مصلحة مصر فى المدى الطويل . ذلك لان ما تعتبره دولة مصر مصلحة مشتركة بينها وبين العالم العربى هو فى حقيقته الموضوعية مصلحة واحدة ، بصرف النظر عن مصالح الحكام . وهو ما اكتشفه عبد الناصر من خلال الممارسة وهو يناضل من أجل تحقيق مصلحة مصر . أراد أن يحرر الوطن المصرى فوجد أنه لا يستطيع ذلك الا اذا تحرر الوطن العربى ، فتحول من قائد تحرر مصرى الى قائد تحرر قومى واعترف بهذا فى محادثات الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣ فقال أن الثورة قد بدأت اقليمية ثم تحولت من خلال الممارسة الى ثورة قومية .

ثالثا : ان المحدد الجغرافى الإقليمى يقاوم ، وبضراوة فى بعض الاوقات ، ولكنه فى النهاية سيستسلم حين تثبت الممارسة للإقليميين انفسهم أن الوحدة إضافة الى دولتهم وليست انتقاصا منها . وطن أكبر وشعب أكثر ومصالح أرقى وثقل دولى يفوق ثقل مصر منفردة بمراحل . وقد يدفعهم الى الاقتناع مجرد انقضاء عصور الدول و الدويلات على المستوى العالمى ودخول العالم عصر التكتلات الكبيرة .

أين المشكلة اذن ؟

المشكلة هى أن ازدواج المحددين الموضوعين ، مصر دولة ، ومصر جزء من الامة العربية ، وتناقضهما فى الوقت ذاته يحول بين مصر وبين القيام بدور استراتيجى فى العالم العربى . أما على المستوى التكتيكى أو المرحلى فيبقى دورها مترددا بين قوتى جذب المحددين . صحيح أن نوع القيادة ذو أثر لا يستهان به ولكنه ليس حاسما . لم يكن

فى أى يوم حاسماً ، ولن يكون فى أى يوم حاسما فما أن تتجه مصر الى أداء دورها التاريخى انطلاقاً من أنها جزء من الأمة العربية حتى ترتد الى أداء دورها الجغرافى استجابة لكونها دولة اقليمية ، ويؤثر هذا التردد تأثيرا سلبيا مدمراً لمقدرة مصر على أداء أى الدورين بالكفاءة التى هى قادرة عليها . فما يبنى على الطريق القومى لا يلبث حتى يهدم على طريق الردة الاقليمية . ومايشيد على أسس اقليمية لا يلبث حتى ينهار لتقوم بدلا منه أسس قومية . وهكذا تبدد طاقة مصر الفكرية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والمعنوية أيضا لان مصر الدولة ، تحت أى حاكم غير قادرة على الانعزال عن مصيرها القومى ، ومصر الشعب تحت أى قيادة غير قادرة على الافلات من أسر دولتها. ونكرر مرة اخرى أن ما يصح بالنسبة الى مصر يصح بالنسبة الى أية دولة عربية.

٢٧ ـ وقد ظنت الدول العربية منذ أن أصبحت دولا أنها قادرة على تجاوز أزمة التناقض بين الحصر الاقليمى فى دول متعددة ، والانتماء القومى الى أمة واحدة ، بالتعاون أو التحالف أو التضامن أو المشاركة على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية والعسكرية والدولية . وهو ممكن بل أنه الممكن الوحيد بالنسبة الى الدول العربية . ولكن هذا الممكن لا يحل المشكلة التى تعانى منها مصر كما تعانى منها الدول العربية جميعا . أعنى العجز المحتوم عن التعاون أو التضامن ... الخ لتحقيق أهداف استراتيجية .

أولا : لأن التضامن بين الدول العربية بصيغه المتعددة من أول الاتفاقات الثنائية الى الجامعة العربية نوع من الصيغ " الجبهوية " التى يلتقى فيها المختلفون أصلا لمواجهة خطر واحد مشترك أو لتحقيق غاية واحدة مشتركة. هذه الصيغة ـ نعنى الجبهة ـ لها قوانينها التى لا حيلة لأحد فيها ، وهى أنها تتم وتبقى على مستوى الحد الاقصى لمصلحة أدنى الاطراف مصلحة . وهو ما يعنى أن التضامن بين الدول العربية يتوقف أثره ومصيره على ارادة الدولة الأضعف من بين أطرافه . اذا كان بين كل الدول العربية كما هو الحال فى الجامعة العربية فانه سيتم ويحقق من النجاح مالا يتجاوز ما تريده أضعف دولة عربية . ولم يكن اتفاق الدول العربية على أن تصدر قرارات الجامعة العربية بالاجماع الا استجابة واقعية ومنطقية لهذا القانون . فى الوطن العربى دويلة تعيش منذ وجدت على ذكاء حاكمها اذ ليس لوجودها أى مبرر آخر . وحاكمها كان ولم يزل من أكثر حكام العرب ذكاء . أدهشنى أن قد دعا أخيرا الى أن تكون قرارات الجامعة العربية

نافذة اذا وافقت عليها الاغلبية . فقلنا خانه الذكاء والحمد لله . ليتهم يستجيبون وسيرى هذا الحاكم وغيره أن قد فتح باب قرارات تتالى صادرة من " الاغلبيـــة " بإلغـــاء الوجـــود المستقل للكثير من الدويلات وعودتها الى الوضع الذى كانت عليه قبل انشائها المصطنع . ومن يدرى لعل أول قرار سيصدر بتوحيد اقليم الشام والغاء الوجـــود المســـتقل لبعـــض أجزائه التى أصبحت دولا عليها حكام اذكياء أو أغبياء ، فيحمد الشعب العربى الله علـــى أن قلل العدد فزادت البركة .

أما اذا كان التضامن أو التحالف .. الخ بين بعض الدول العربية ، فقد يحقق نجاحـــا أكبر ولكنه يظل مرتبطا بأضعف اطرافه . وقد تؤدى جبهة بين عدد محدد مـــن الـــدول العربية الى قيام جبهة اخرى ، أو جبهات اخرى من دول محددة أخرى . وهذا يعنـــى أن العجز عن تحقيق هدف استراتيجى قد أصبح عداء ، أو فلنقل منافسة ، بين أهداف مرحلية مختلفة . وليس من المستبعد أن تكون مناهضة آمال الشعب العربى فى التحرر والوحـــدة والتقدم من بين تلك الاهداف إذ ليست العبرة بالتضامن أو التحالف أو الإلتقاء ، إنما العبرة بما يتضامنون على تحقيقه ويتحالفون من أجل الوصول اليه ويلتقون عليه. وهم لايلتقـــون دائما على خير. الا نرى أنهم لم يتضامنوا و يتحالفوا ويلتقوا على شئ واحـــد ثـــابت الا الابقاء على تجزئة الأمة العربية .

ثانيا : اما القانون الثانى للعمل الجبهوى فهو أنه مؤقت بحيث يعجز تماما عندما يكون مطلوبا منه مواجهة مشكلات استراتيجية تخطيطا وتنفيذا وتعبئة تمتد زمانا طويـــلا أو زمانا غير محدود مثل مشكلة استرداد فلسطين المغتصبة ، أو مواجهة مشكلات متجـــددة أبدا مثل مشكلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . فى أول فرصة تجد أية دولة عربية أن " أرباح " التضامن أقل من " تكاليفه "، على أى مستوى ، تفلت وينهار التضامن جزئيا أو كليا . وللدول العربية فى هذا تجارب مرة . لقد انهارت كل صيغ التعـــاون الاقتصـــادى والعسكرى التى انشئت فى نطاق الجامعة العربية أو خارج نطاقها بقـــرارات منفـــردة أو ثنائية أو حتى جماعية (المجلس الاقتصادى المشترك ــ اتفاقيـــة الوحـــدة الاقتصاديـــة بأجهزتها ــ مجلس الوحدة الاقتصادية ــ اللجان الدائمة ــ المكتب الفنى الاستشـــارى ــ السوق العربية المشتركة ــ صندوق الانماء الاقتصادى والاجتماعى ــ اتفاقيات الدفـــاع المشترك ــ اتفاقيات الوحدة . وأخيرا القرار الذى صدر بالاجماع لا تفاوض و لا صلح و لا إعتراف باسرائيل).

٢٨ ــ فهل يعنى هذا أن كل تلك الصيغ من التعاون الى التضامن عبث ؟. أبدا . انها ليست عبثا . فهى تقاليد قديمة ومتكررة فى العلاقات فيما بين الدول " المستقلة " . فحينما تتفق الدول العربية أو تتعاون أو تتضامن فهى تفعل هذا لا باعتبار أقطارها اجزاء من الأمة العربية ، أى ليس استجابة للمحدد التاريخى القومى. ولكن باعتبارها دولا مستقلة أى استجابة للمحدد الجغرافى الاقليمى . فنستطيع أن نقول مطمئنين أن هذه الصيغ الجبهوية تكريس لفاعلية المحدد الجغرافى الاقليمى ، واضعاف متعمد أو غير متعمد لفاعلية المحدد التاريخى القومى.

هذا بالنسبة الى الأمة العربية ومصيرها الواحد ، أما بالنسبة الى الدول العربية أطراف التعاون أو التضامن أو أعضاء الجامعة العربية فقد تكون صيغا مفيدة على المدى القصير. ومادامت على المدى القصير فانها لن تحل مشكلة أية دولة فيها . أعنى المشكلة موضوع الحديث . لن تسمح تلك الصيغ لاية دولة متعاونة أو متضامنة أو عضو فى الجامعة العربية بأن تحدد لذاتها دورا استراتيجيا فى الوطن العربى يتفق مع انتمائها القومى الى الامة العربية . ولن تحميها من فاعلية هذا الانتماء فى افشال خططها الاقليمية. وتبقى كما هى مترددة بين حدين متناقضين ، وستظل تهدر طاقتها البشرية والمادية فى بناء ما ستهدمه وهدم ما بنته .

(٦)

الحل

الوحدة :

٢٩ ــ هل لهذه المشكلة حل أو حلول ؟ أولا ، ليس لأية مشكلة الا حل صحيح واحد فى زمان معين . هكذا قال منذ قرون الفيلسوف العربى ابن الهيثم وهكذا تقول كل المذاهب العلمية الحديثة التى تسلم بأن للواقع الموضوعى حقيقة واحدة بصرف النظر عن اختلاف الناس فى أمره. أن يختلف العرب فى معرفة الحل ويدعى كل صاحب رأى أن رأيه هو الصحيح فقد يكونون كلهم مخطئين ، ولكن المستحيل أن يكونوا جميعا صائبين أو أن يكون ثمة رأيان صائبان ومختلفان فى الوقت ذاته . هذه قضية منهجية أولية ما لم ندركها ونلتزمها فستضيع حياة أجيال كثيرة فى محاولات تلفيق حلول لمشكلة واحدة .

أما الحل الصحيح فى رأينا فهو دولة الوحدة . دولة واحدة لأمة واحدة . أى ايقاف والغاء تلك الردة الغبية الى الماضى حيث كانت الشعوب شعوبا متجاورة يخضع كل منها للمحدد الجغرافى . لن تتحرر دولة عربية وان تحررت لن تحتفظ بحريتها ، ولن تتقدم الحياة فى دولة عربية، وان تقدمت فبالممكن الاقليمى القليل وليس بالمتاح القومى الكثير، ولن تسترد الأرض المغتصبة واذا استرد بعضها فلن يكون الا بشروط الغاصبين .. ما لم يتحرر الشعب العربى من تلك المؤسسات السجون التى تسمى الدول العربية . ان لكل دولة عربية ، بما فيها مصر ، دورا فى الوطن العربى ، هذا لاشك فيه ، ولكن لن تستطيع أية دولة عربية ، بما فيها مصر ، أن تقوم بدور استراتيجى يتفق مع كونها جزء من أمة واحدة الا فى دولة الوحدة . من كانت له أذنان فليسمع ، ومن كان له عقل فليعقل ومن كانت له تجربة فليعتبر.

ولكن كيف الوحدة ؟

٣٠ — هذا سؤال مشروع . وهو يستمد مشروعيته من موقف صاحبه . فكل الذين استمعوا وعقلوا واعتبروا وحرقوا مراكب الاقليمية فهم يريدون أن يعرفوا كيف يعبرون التجزئة الاقليمية الى مصر الوحدة من حقهم أن يسألوا هذا السؤال كل الذين يريدون أن ينهوا الازدواج والتردد والتناقض فى سياساتهم من حقهم أن يسألوا هذا السؤال ، كل الذين لا يريدون أن يعيشوا فى القرن العشرين خاضعين لما خضع له الآشوريين والفراعنة والكنعانيون .. الخ وأن يعيشوا عربا من حقهم أن يسألوا هذا السؤال . وعلى كل من يدعوالى الوحدة أن يعرف اجابة هذا السؤال وأن يقبل مناقشتها وتعديلها واستبدالها باجابة أخرى ... وأما الذين ليس من حقهم أن يسألوا السؤال : كيف الوحدة ولا يستحقون الاجابة عليه فهم اعداؤها الذين يستهدفون من وراء السؤال التشكيك فى الوحدة . ومن مظاهر التشكيك التى لاتخفى على أحد قبولهم ورضاهم الحياة فى أسر دولهم الاقليمية بل والتنافس على الاستيلاء عليها وحكمها .

أما المنافقون فيجيبون على السؤال : كيف الوحدة ؟ جوابا مستحيلا ، حتى يظلوا غير متهمين فى قوميتهم وغير قوميين فى الوقت ذاته . ولقد قال الله تعالى عن المنافقين " واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى "(النساء : ١٤٢). أى أنهم يصلون !! ثم أنذرهم بما هو أسوأ من مصير الكافرين فقال:" ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار"(النساء ١٤٧). قياسا على منطق الآيات الكريمة نقول أن المنافقين هم اولئك الذين لا ينكرون

الوحدة ولكنهم لا يناضلون نضالا غير كسول من أجل تحقيقها . وأن مصيرهم فى دولة الوحدة سيكون أنكى من مصير الإقليمين أنفسهم . ومن المنافقين من يزعم أن الوحدة تقوم اتفاقا بين الدول العربية . وهو محال .

٣١ – جرب هذا الحل بالذات عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٣ وعام ١٩٧١ وفشل فى كل تلك التجارب فانفصمت الوحدة وتحول الاخوة الى أعداء . وكل وحدة على هذا النمط تنفصم طال الزمن أو قصر . حسنت النوايا أو ساءت . ذلك لانه محال فى الوطن العربى وكان محالا على مدى التاريخ منذ انتهاء عهد الإمبراطوريات ، ومحال على مدى اتساع الكرة الارضية أن تتحقق الوحدة اتفاقا بين دولتين . لا أريد أن أستطرد فى بيان أسباب الاستحالة ، فمنذ ربع قرن ، وكلما لاحت تجربة جديدة ، حذرت فى كتب ومقالات منشورة من وهم مقدرة رؤساء الدول على الغاء دولهم ذلك ان الوحدة القائمة على اسس قومية ليست جمعا بين دولتين ، ولكنها الغاء لدولتين أو أكثر لاقامة دولة واحدة على انقاضهما أو انقاضها . وعندما يتقدم ممثلوا كل دولة الى مائدة المفاوضات من أجل الوحدة ، يتفاوضون ، يتساومون ، يتفقون ، ثم يرجع كل واحد الى دولته ليحصل على تصديقها على هذا الاتفاق . هنا يواجهون المحال . كيف يمكن لاية دولة أن تصدق على اتفاق يلغى شرعية وجودها المستقل . انهم فى اللحظة التى يقبلون فيها يفقدون شرعية تمثيلهم للدولة . بعض الحكام استطاعوا ويستطيعون أن يفعلوا هذا بدون توقف على ما تأذن به الشرعية . ولكن هذا لا يعنى أنهم وهم يحققون الوحدة كانوا يمثلون دولهم ولكن يعنى أنهم يثورون ضد دولهم ذاتها من أجل هدف يؤمنون بأنه مصدر الشرعية أو المصدر الوحيد للشرعية لا بأس بهذا على أن نتذكر أن الوحدة هنا متحققة بإرادة الثورة ضد الدولة الاقليمية وليس اتفاقا بينها وبين دولة اقليمية اخرى ، هذا – طبعا – عندما يكون القرار الوحدوى صادرا من ممثل لدولة توافرت لها كل عناصر الدولة فهو ثورة عليها ، وليس كل قطر من الوطن العربى يسمى مجازا " دولة " هو فى الحقيقة دولة ، فى اقطار عربية كثيرة تسمى دولا يستطيع الحاكم فيها أن يفعل ما يشاء بمصير القطر الذى يحكمه حكما فرديا . هنا يمكن أن يذهب الحاكم بقطره الى الوحدة مع قطر آخر بدون عناء كثير، ولكن كثيرا من الوحدويين – ونحن منهم – لا يباركون الحكم الفردى ولا يشجعونه ولو من أجل الوحدة ، لانهم يعرفون العائد السلبى على ايمان الجماهير بالوحدة عندما تقترن بالاستبداد .

٣٢ ــ ان القوميين ، أى الذين يحتفظون بكامل ولائهم للشعب العربــــى وحــده ، لا يقبلون الوحدة العربية لوضع الشعب العربى كله موضع التبعية لاية قـــوة خارجيـــة. ولا يقبلونها لانشاء إمبراطورية من أجل إمبراطور ، ولا يقبلونها من أجل اجتمــــاع الفقـــراء المتخلفين فى دولة التخلف والفقر ، ولا يقبلونها من أجل أن يكون الشعب العربــــى كلـــه عبيدا لمستبد واحد . لا . اننا نعرف تماما أن المستعمرين يتمنون لو أنهم وحــدوا الامـــة العربية تحت سيطرتهم ، وأن كل حاكم فى دولة عربية يتمنى لو توحدت الامة العربية فى امبراطورية هو امبراطورها ، وأن كثيرا ممن يدعون الى الوحدة لا يربطون بينها وبيـــن التقدم والرخاء ، وأى مستبد يتمنى لو كان كل البشر عبيدا له. هذا كله معروف لا يجهلـــه الا الذين ينخدعون بالدعوة الى الوحدة المجردة مــــن مضامينـــها التحرريـــة والتقدميـــة والديموقراطية . وليس القوميون من بين اولئك الجهلة . ان انتماءهم الى امتهم وولاءهـــم لشعبها يحددان لهم هوية الوحدة التى يريدونها. انها الوحدة العربية من أجل تحرر وتقـــدم وسيادة الشعب العربى فى دولته القومية . وهى لن تكون كذلك أبدا الا اذا حققها الشـــعب العربى نفسه على مايريد . ثم لماذا الوحدة فى قبضة الاستعمار، أو اليأس مــــن التقـــدم والرخاء ، أو مذلة العبودية لمستبد ان كل هذا متوفر بأكثر مما يطيق الشعب العربى فـــى ظل التجزئة الاقليمية . ولا نقول الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، بل نذكر مـــا قاله تعالى:" ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك"(النساء: ٧٩) .

عند الشعب العربى اذن الجواب الصحيح على السؤال : **كيف الوحدة العربية ؟.**

٣٣ ــ وليس مطلوبا من أية دولة عربية الا أن ترفع يد القهر عن الشعب العربـــــى فيها ليقدم جوابه وينفذه . سيقدمه ان كان واعيا وحدة امته ووحدة مصيرهـــا . وســـيقدمه استجابة لشعوره بالانتماء الى أمة واحدة . وسيقدمه من خلال الممارسة حينمـــا يكتشـــف بنفسه ان مشكلات تحرره وتطوره وتقدمه مشكلات قومية موضوعيـــــا فلـــن تحـــل الا بوسائل قومية لاتوفرها الا دولة الوحدة . بل سيقدمها من خلال حتى فشل الدول العربيـــة ذاتها فى الوفاء بوعود التحرر والرخاء والتقدم التى ينثرها حكامها . وسيتجه الى الوحـــدة مبتدئا من واقعه فيحققها فى ذاته اولا بالالتحام المنظم مع الشعب العربـــــى فـــى الـــدول الاخرى وتجسيد هذا الالتحام فى منظمات قومية . ليـــــس قوميـــة المواثيـــق المكتوبـــة والشعارات الرنانة بل قومية التكوين والحركة . وبناء حزبه القومى التقدمى الذى يقـــود الشعب العربى الوحدوى فى كل الدول فى مواجهة كل الدول الى أن يلغى دولتين علــــى الاقل فيقيم دولة الوحدة النواة . دولة العرب . ثم ــ وهذا على اكبر قدر من الاهميـــة ــ يزحف وحدويا ولا يتوقف مهما طال الزمان الى أن تتحقق الوحدة العربية ديموقراطيا .

نعم ديموقراطيا . اذ الديموقراطية هى اسلوب الشعوب فى تحقيق أهدافها أما اسـلوب الغاء الدول الاقليمية لحساب دولة الوحدة النواة أو الشاملة فهذا متروك لحكامها ومـــا اذا كانوا سيخضعون لارادة الشعب أم يقاومونه . ان خضعوا كما فعل عبد الناصر والقوتلـى عام ١٩٥٨ فلا مشكلة وان قاوموا فسيكونوا هم المسئولين عن أى اســـلوب يلجـأ اليـه الشعب من أجل تحقيق الوحدة .

٣٤ ــ هل هذا ممكن ؟ نعم ممكن موضوعيا. ولكن الدول الاقليمية هى التى تحــول بين الشعب العربى وبينه بالرغم من أنه سلمى وإصلاحى أيضا . وهكذا تدفـــع الـدول الاقليمية الشعب العربى دفعا ، وتلجئه الجاء . وتحرضه تحريضا ، على أن يسلك الــى وحدته طريق الثورة العربية الشاملة : وحديث الثورة العربية الشاملة لايهم الا القـــادرين عليها وبالتالى لايفيد أحدا فى حديث موجه الى الكافة فلنتركه لأصحاب الحق فيه .

٣٥ ــ الخلاصة انه اذا كانت مصر تريد أن تحرر ارادتها من التردد بيـــن المحـدد الجغرافى الاقليمى والمحدد التاريخى القومى ، وتحافظ على وحدة طاقاتها فلا تبددهـــا ، وتلعب دورا استراتيجيا فى الوطن العربى فلنترك للشعب العربى فيها حرية " العمل " من أجل تحقيق الوحدة العربية ولو احتراما لدستور مصر الذى حمل الشعب ، وليس الحكومة ، مسئولية العمل على تحقيقها فى مادته الاولى . واذا صح ما يقال من أن رحلة الالـــف ميل تبدأ بخطوة وكانت الوحدة العربية كشرط لقيام مصر بدور استراتيجى فـــى العـالم العربى يتفق مع كونها جزءا من الامة العربية هدفا بعيدا ، وهو بعيد فعلا ، فان الخطـوة الاولى اليه ممكنة بقدر ما هى لازمة. انها حرية الشعب فى أن يفرض ارادتـــه ويحقـق مصيره . انها الديموقراطية .

وكما يصدق كل هذا على مصر يصدق على كل قطر عربى . ولكن مميزه أنه حتـى فى ظل الديموقراطية لن يستطيع أى شعب عربى فى قطـــــــــر واحـــد أن يخطـو وحده نحو الوحدة ولو كان الشعب العربى فى مصر . ومن هنا نعـــرف أن تحقيـق دور قومى لمصر فى الوطن العربى ليس مسئولية دولتها ، ولاحكومتـــها ولا حتـى الشـعب العربى فيها وحده ، بل مسئولية الشعب العربى فى كل الاقطار .

* * *

فهرس الكتاب

صدر من هذه السلسلة

- الوثيقة الصهيونية لتفتيت الأمة ا لعربية .
- الصهيونية فى العقل العربى .

تحت الطبع

- كيف تتكون الأمم ؟
- الإسلام و الأمة العربية .
- الأمة فى القرآن الكريم .
- مفهوم النظام الإسلامي .

من مؤلفات الدكتور / عصمت سيف الدولة

- أسس الاشتراكية العربية ١٩٦٥
- أسس الوحدة العربية ١٩٦٥
- الطريق إلى الوحدة العربية ١٩٦٦
- الطريق إلى الاشتراكية العربية ١٩٦٧
- وحدة القوى العربية التقدمية ١٩٦٨
- ما العمل ؟ حول هزيمة ١٩٦٧ ١٩٦٩
- الطريق إلى الديموقراطية ١٩٧١
- الوحدة ومعركة تحرير فلسطين ١٩٧١
- نظرية الثورة العربية ١٩٧٢
- النظام النيابى ومشكلة الديموقراطية ١٩٧٥
- الحركة الطلابية ١٩٧٥
- الأحزاب ومشكلة الديموقراطية فى مصر ١٩٧٦
- هل كان عبد الناصر ديكتاتورا ؟ ١٩٧٧
- التقدم على الطريق المسدود ١٩٧٧
- إعدام السجان ١٩٧٨
- حوار مع الشباب العربى ١٩٧٨
- رأسماليون وطنيون ورأسمالية خائنة ١٩٧٩
- هذه المعاهدة ١٩٨٠
- دفاع عن الشعب ١٩٨٠

- الاستبداد الديموقراطي ١٩٨٠
- دفاع عن الوطن ١٩٨٠
- هذه الدعوة للاعتراف المستحيل ١٩٨٣
- عن العروبة والإسلام ١٩٨٦
- دفاع عن ثورة مصر العربية ١٩٩٠
- الشباب العربى و مشكلة الإنتماء ١٩٩١
- مذكرات قرية ــ الجزء الأول ١٩٩٤
- مذكرات قرية ــ الجزء الثانى ١٩٩٥

رقم الإيداع
٢٠٠٣/١٣٦٥٢